

# عَسْكَرُ الموتى
# ينتظرونك

# مواعظ الحسن البصري في الموت

الحسن البصري شيخ البكائين الذي يشبه كلامه كلام الأنبياء يستمطر الدمع بكلامه، أو كما قال عنه يونس بن عبيد: «إن الحسن كان إذا تكلم يدمي القلوب ووعظ غيره لا يُبكي العيون».

● كان يقول: حقيق على من عرف أن الموت مورده، والقيامة موعده والوقوف بين يدي الجبار مشهده أن تطول في الدنيا حسرته، وفي العمل الصالح رغبته».

● وكان يقول: لولا ثلاثة ما طأطأ ابن آدم رأسه الموت والمرض والفقر وإنه بعد ذلك لوثاب.

● وقال: المسلم لا يأكل في كل بطنه، ولا تزال وصيته تحت جنبه[1].

● عن صالح بن رستم قال: سمعت الحسن يقول: رحم اللَّه رجلاً لم يغره كثرة ما يرى من كثرة الناس: ابن آدم إنك تموت وحدك وتدخل القبر وحدك وتبعث وحدك وتحاسب وحدك ابن آدم وأنت المعني وإياك يُراد[2].

● قال الحسن: فضح الموت الدنيا فلم يترك فيها لذي لبٍّ فرحًا[3].

● وعن هاشم عن الحسن قال: ما أكثر عبد ذكر الموت إلا رأى ذلك في عمله ولا طال أمل عبد قط إلا أساء العمل[4].

---

(١) «الزهد» لابن المبارك ص(٩١).

(٢) «حلية الأولياء» (٢/ ١٥٤ ـ ١٥٥).

(٣) «حلية الأولياء» (٢/ ٢٤٩).

(٤) «الزهد» لأحمد ص(٢٣٦).

● وعن الحسن قال: كان رجل من المسلمين يبلغه موت أخ من إخوانه فيقول: - إنا للَّه وإنا إليه راجعون - كدت واللَّه أن أكون أنا السواد المختطف، فيزيده اللَّه بذلك جدًّا واجتهادًا، فيلبث بذلك ما شاء اللَّه، ثم يبلغه موت الأخ من إخوانه فيقول: - إنا للَّه وإنا إليه راجعون كدت واللَّه أن أكون أنا السواد المختطف، فيزيده اللَّه بذلك جدًّا واجتهادًا.

قال: فردد الحسن هذا الكلام غير مرة فواللَّه ما زال كذلك حتى مات موتًا كيسًا[١].

● وعن هشام قال: سمعت الحسن قال: عاد رجل أخًا له فوافقه الموت فرأى من مرأى عكر الموت وكرب الموت، قال: فرجع إلى أهله وجاءوا بغدائه، فقال: يا أهلاه عليكم بغدائكم قالوا: يا فلان الضيعة، قال: يا أهلاه عليكم ضيعتكم فواللَّه لقد رأيت مصرعًا لا أزال أعمل له حتى أقدم عليه[٢].

● وكان الحسن يقول في آخر دعائه: اللَّهم اجعل لنا في الموت راحة وروحًا ومعافاة[٣].

● ورأى الحسن شيخًا في جنازة فلما فرغ من الدفن، قال له الحسن: يا شيخ أسألك بربك أتظن أن هذا الميت يود أن يرد إلى الدنيا فيتزيد من عمله الصالح ويستغفر اللَّه من ذنوبه السالفة؟ فقال الشيخ: اللَّهم نعم، فقال الحسن: فما بالنا لا نكون كهذا الميت، ثم انصرف وهو يقول:

أي موعظة؟ وما أنفعها لو كان بالقلوب حياة، ولكن لا حياة لمن تنادي.

---

(١) «الزهد» لأحمد ص(٢٣٦)، و«الزهد» للحسن البصري ص(٢١).

(٢) «الزهد» لأحمد ص(٢٥٠).

(٣) «الزهد» لأحمد ص(٢٥٠).

● قال صالح المري: دخلت على الحسن يومًا فوجدته ينشد:

ليس من مات فاستراح بميت ... إنما الميت ميت الأحياء

إنما الميّت من تراه كئيبًا ... كاسفًا باله قليل الرجاء

وكان إذا أصبح وفرغ من تسبيحه أنشد:

وما الدنيا بباقية لحي ... ولا حي على الدنيا بباقي

وإذا أمسى بكى وتمثل وقال:

يسر الفتى ما كان قدم من تقى ... إذا عرف الداء الذي هو قاتله

● وكان يقول: ما رأيت يقينًا لا شك فيه أصبح شكًّا لا يقين فيه من يقيننا بالموت وعملنا لغيره.

● عاد الحسن عليلاً فوافقه وهو في الموت، ورأى تقلبه وشدة ما نزل به فلما رجع إلى داره قدموا له طعامًا فقال: عليكم بطعامكم وشرابكم فإني رأيت مصرعًا لا بد لي منه ولا أزال أعمل حتى ألقاه وتأخر عن الطعام أيامًا حتى لطف به فأكل[١] .

● وكان يقول: عباد اللَّه إن اللَّه سبحانه لم يجعل لأعمالكم أجلاً دون الموت فعليكم بالمداومة فإنه جل ثناؤه يقول: ﴿**وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ**﴾ [الحجر: ٩٩].

وقال: أيها الناس أصبحتم واللَّه في أجل منقوص وعمل محصي محروس والموت فوق رؤوسكم والنار بين أيديكم[٢] .

● وحضر الحسن جنازة، ثم قال: أيها الناس اعملوا لمثل هذا اليوم

---

(١) «الحسن البصري» ص(٩٠).

(٢) «الحسن البصري» ص(٩٢).

فسيرى اللَّه عملكم ورسوله، ثم تردون إلى عـالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون[١] .

رُوي أن الحسن ﷺ اتصل به أن مكحولاً توفي فحزن عليه وترحم له، ثم اتصل به بطلان ذلك فكتب إليه: أما بـعد، أبا عبد اللَّه كان اللَّه لنا ولك في المحيـا والممات وقضى لنـا ولك بخير في الـدنيا والآخرة ويسّر لـنا ولك حسن المآل والمنقلـب، فإنه أتانا عنك ما راعنا، ثم أتى بعده مـا أكذبه فلعمر اللَّه لقد سررنا، وإن كان السرور به وشيك الانقطاع ذاهبًا عما قليل إلى الخبر الأول فهل أنت ـ عافاك اللَّه ووفقنا، وإياك لصالح العمل ـ كرجل ذاق الموت وعاين ما بعـده وسأله الرجعة فأجيـب إليها وأعطي ما سأل بـعد أن عاين ما فاته فتـأهب في فعل جهـازه إلى دار قراره لا يرى أن له من مـاله إلا ما قدم أمامه، ومن عمله إلا ما كتب له ثوابه والسلام[٢] .

• وكان الحسن يقول: من لم يمت فجأة مرض فجأة فاتقوا اللَّه واحذروا مفاجأة ربكم.

وكان الحسن يـقول: أيها الناس إنا والـلَّه ما خلقنـا للفناء ولكن خـلقنا للبقاء وإنما ننتقل من دارٍ إلى دار.

نظم ذلك أبو العلاء المعري فقال:

| | |
|---|---|
| خُلق النــاس للبقــاء فضـلـت | أمــة يحسبونهــم للنفـــاد |
| إنمــا ينـقـلـــون مــن دار | أعمــال إلى دار شقـوة أو رشـاد[٣] |

---

(١) «الحسن البصري» ص(١٠٠) وراجع الآية [التوبة: ٩٤].

(٢) «الحسن البصري» ص(١٠٢).

(٣) «الحسن البصري» ص(٤١).

• وكان يقول: ابن آدم بين ثلاثة أشياء: بلية نازلة ونعمة زائلة ومنية قاتلة[١].

• وقال ابن آدم عرض لثلاثة أسهم: بلية أو رزية أو منية.

• وكان يقول: ابن آدم عرض للبلايا والرزايا والمنايا، ثم ينتحب ويبكي ويقول: ﴿**رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾ [البقرة: ٢٠١][٢].

• وعنه قال: أدركت أقوامًا كانت الدنيا تعرض لأحدهم حلالاً فيدعها فيقول: واللَّه ما أدري على ما أنا من هذه إذا صارت في يدي[٣].

• عن الحسن قال: واللَّه ما تعاظم في أنفسهم ما طلبوا به الجنة أبكاهم الخوف من النار[٤].

• عن الحسن قال: المؤمن من يعلم أن ما قال اللَّه عز وجل كما قال، والمؤمن أحسن الناس عملاً وأشد الناس خوفًا، لو أنفق جبلاً من مال ما أمن دون أن يعاين لا يزداد صلاحًا وبرًّا وعبادة إلا ازداد فرقًا، يقول: لا أنجو لا أنجو، والمنافق يقول: سواد الناس كثير وسيغفر لي، ولا بأس عليّ يسيء العمل ويتمنى على اللَّه تعالى[٥].

• عن الحسن أنه كان إذا تلا هذه الآية: ﴿**فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ**﴾ [لقمان: ٣٣]، قال: من قال ذا؟ قال: من خلقها وهو

---

(١) «الحسن البصري» ص(٤٤).

(٢) «الحسن البصري» ص(٤٤).

(٣) «الزهد» لابن المبارك ص(١٧٨).

(٤) «الزهد» لابن المبارك ص(١٨٧).

(٥) «الزهد» لابن المبارك ص(١٨٧ ـ ١٨٨).

أعلم بها[١] .

● قال الحسن: إياكم وما شغل من الدنيا، فإن الدنيا كثيرة الاشتغال لا يفتح رجل على نفسه باب شغل، إلا أوشك ذلك الباب أن يفتح عليه عشرة أبواب[٢] .

● قال: خباث، كل عيدانك مضغنا فوجدنا عاقبته مراً[٣] .

## من كلام ابن الجوزي سيد الوعاظ

● ليس مثل وعظ ابن الجوزي وعظ، وليست النائحة الثكلى كالمستعارة.

وقد جمعنا متفرق كلامه في «التبصرة» و«المدهش»، و«بستان الواعظين»، و«مقامات ابن الجوزي»:

● كتب ـ رحمه الله ـ:

| | |
|---|---|
| اصبر لمر حوادث الدهر | فلتحمدنّ مغبة الصبرِ |
| واجهد لنفسك قبل ميتتها | واذخر ليوم تفاضل الذخر |
| فكأن أهلك قد دعوك فلم | تسمع وأنت محشرج الصدر |
| وكأنهم قد قلبوك على ظهر | السرير وأنت لا تدري |
| وكأنهم قد زودوك بما | يتزود الهلكى من العطر |
| يا ليت شعري كيف أنت إذا | غسلت بالكافور والسدر |
| يا ليت شعري كيف أنت على | بنش الضريح وظلمة القبر |
| يا ليت شعري ما أقول إذا | وضع الكتاب صبيحة الحشر |
| ما حجتي فيما أتيت على | علم ومعرفة وما عذري |

---

(١) «الزهد» لابن المبارك ص(١٨٩).

(٢) «الزهد» لابن المبارك ص(١٩٨ ـ ١٩٠).

(٣) «الزهد» لابن المبارك ص(١٩١).

يا سوأتا مما اكتسبت ويا أسفي على ما فات من عمري
ألا أكون عقلت شأني فاســ ــتقبلت ما استدبرت من أمري

● إلامَ ترفضُ قول الناصح وقد أتاك بأمرٍ واضحْ؟ أترضى بالشَّيْنْ والقبائحْ؟ كأني بك قد نُقلت إلى بطون الصفائحْ، وبقيت محبوسًا إلى الحشر تحت تلك الضرائح، وخُتم الكتابُ على آفاتٍ وقبائحْ.

إنا على قلعة من هذه الدار نُساق عنها بإمساء وإبكار
نبكي ونندب آثار الذين مضوا وسوف تلحق آثار بآثارِ
طالت عمارتنا الدنيا على غررٍ ونحن نعلم أنَّا غير عُمّار
يا من يُحَثُّ بترحال على عجلٍ ليس المحلّة غير الفوز من نار
فاترك مفاخرة الدنيا وزينتها يوم القيامة يوم الفخر والعار

لقد أبانت الدنيا للنواظر عيوبها، وكشفت للبصائر غيوبها، وعددت على المسامع ذنوبها وما مرت حتى أمرت مشروبها، فلذتها مثل لمعان برق ومصيبتها واسعة الخلق سوت عواقبها بين سلطان الغرب والشرق، وبين عبد قن وحقير ولا فرق، فما نجا منها ذو عدد ولا سلم فيها صاحب عدد، مزقت واللَّه الكل بكف البدد، ثم ولته وما ألوت على أحد.

إلام تُغر بالأمل الطويلِ وليس إلى الإقامة من سبيلِ
فدع عنك التعلل بالأماني فما بعد المشيب سوى الرحيلِ
أتأمن أن تدوم على الليالي وكم أفنيْنَ قبلك من خليلِ
وما زالت بنات الدهر تُفني بني الأيام جيلاً بعد جيلِ

* * *

سبيلُك في الدنيا سبيل مسافرِ ولا بد من زاد لكل مسافرِ
ولا بد للإنسان من حَمْلِ عِدّةٍ ولا سيما إن خاف سطوة قاهر
وطُرقك طرق ليس تسلك دائمًا وفيها عقاب بعد صعب القناطر

قد مضى في اللهو عمري ... وتناهى فيه أمري
شَمّر الأكياسُ وأنا ... واقفٌ قد شِيب أمري
بانَ رِبْحُ الناسِ دوني ... ولحيني بان خسري
ليتني أقبلُ وعظي ... ليتني أسمع زجري
كل يوم أَنَا رهْنٌ ... بين آثامي ووزري
ليت شعري هل أرى لي ... همة في فَكِّ أسري
أو أُرى في ثوب صدق ... قبل أن أنزل قبري
ويح قلبي من تناسيه ... مقامي يوم حشري
واشتغالي عن خطايا ... أثقلت واللَّه ظهري

## سجع على قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾:

كأنك بالعمر قد انقرض، وهَجم عليك المرض، وفات كلُّ مراد وغرض، وإذا بالتلف قد عَرض أخَّاذا: ﴿**لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا**﴾.

شخَص البصرُ وسكن الصَّوْت، ولم يمكن التداركُ للفَوْت، ونزل بك ملَك الموت فسامَت الروُّحَ وحاذى: ﴿**لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا**﴾.

عالجت أشدَّ الشدائد، فيا عجبًا مما تُكابد، كأنك قد سُقيت سُمَّ الأساود فقطَّع أفْلاذا ﴿**لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا**﴾.

بلغت الروحُ إلى التراقي، ولم تعرف الراقي من الساقي، ولم تدر عند الرحيل ما تلاقي، عِيَاذا باللَّه عياذا ﴿**لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا**﴾.

ثم درجوك في الكفن وحملوك إلى بيت العفَن، على العيب القبيح والأفَن، وإذا الحبيب من التراب قد حَفَن، وصرت في القبر جُذَاذا ﴿**لَقَدْ**

كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾.

وتسربَّت عنك الأقارب تسري، تقـدُّ في مالك وتَفْرِي، وغايةُ أمرهم أن تجري دموعهم رذَاذا ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾.

قفلوا الأقفال وبضَّعوا البضاعة، ونسَوا ذِكْرك يا حبيبهم بعد ساعة وبقيت هناك إلى أن تقوم الساعة، لا تجد وَزَرًا ولا معاذا ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾.

ثم قمت من قبرك فقيرًا، لا تملك من المال نَـقِيرًا، أصبحت بالذنوب عَقِيرًا، فلو قدَّمت من الخير حقيرًا صار ملجأً وملاذا، ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾.

كم يومٍ غابت شمسه وقلبك غـائبْ، وكم ظلام أُسبل سِتْرَه وأنت في عجائبْ، وكم أُسبغت عليك نعمه وأنت للمعاصي تُواثِبْ، وكم صحيفة قد ملأها بالذنوب الكاتبْ، وكم يُنذرك سَلبُ رفيقك وأنت لاعبْ، يا من يأمن الإقامةَ قـد زُمَّت الركائبْ، أَفِقْ من سكْرتك قبل حسرتك على المعايب، وتذكَّر نزولَ حُفْـرتك وهجران الأقارب، وانهض عن بساط الرقاد وقل: أنا تائب، وبادر تحصيل الفضائل قبل فـوت المطالب، فالسائق حثيث والحادي مُجِدٌّ والموت طالب.

أَبصرتُه مُلْقىً يجودُ بنفسه ... قد كَلَّل الرشْحُ الغَزِير جبينَهُ
لا يستطيع إجابتي مِن ضَعْفه ... طوراً يكفُّ شمالَه ويمينَهُ
وطبيبهُ قد حار فيه وقد رأى ... أنفاسَه تعلو معًا وأنينَه
قد عافَ مشروباتِه وطعامَه ... وقَلَى لذاك صديقَه وخَدينَه

● إخواني: سَلُوا القبور عن سُكَّانها، واستخبروا اللحودَ عن قُطَّانها،

تخبركم بخشونة المضاجع، وتُعلمكم أن الحسرة قد ملأت المواضع، فإن المسافر يودّ لو أنه راجع، فليتعظِ الغافل وليراجع.

● كان محمد بن السماك يقول:

يا بن آدم أنت في حبس منذ كنت، أنت محبوس في الصلب ثم في البطن، ثم في القماط، ثم في المكتب، ثم تصير محبوسًا في الكد على العيال، فاطلب لنفسك الراحة بعد الموت لا تكون في حبس أيضًا.

● قال أبو حازم:

انظر كل عمل كرهت الموت لأجله فاتركه ولا يضرك متى مت.

أخي إنما الدنيا محلة نغصة ... ودار غرور آذنت بفراقِ
تزود أخي من قبل أن تسكن الثرى ... وتلتف ساق للممات بساقِ

* * *

يا ليت شعري ما ادخرت ... ليوم بؤسك وافتقاركْ
فلتنزلن بمنزل ... تحتاج فيه إلى ادخاركْ
أفنيت عمرك باغترارك ... ومناك فيه بانتظاركْ
ونسيت ما لا بد منـ ... ـه وكان أولى بادكاركْ
ولو اعتبرت بمن مضى ... لكفاك علمًا باعتباركْ
لك ساعة تأتيك من ... ساعات ليلك أو نهاركْ
فتصير محتضرًا بها ... فتهمي من قبل احتقاركْ
من قبل أن تقلى وتقـ ... ـصى ثم تخرج من دياركْ
من قبل أن تتشاغل الزو ... ار عنك وعن مزاركْ

فهل ينتظر أهل غضاضة الشباب إلا الهرم؟ وأهل بضاعة الصحة إلا

السقم؟ وأهل طول البكاء إلا مفاجأة الفناء، واقتراب الفوت، ونزول الموت، وأزف الانتقال، واشفاء الزوال، وحفز الأنين، وعرق الجبين، وامتداد العرنين، وعظم القلق، وقبض الرمق.

جعلنا اللَّه وإياكم ممن أفاق لنفسه، وفاق بالتحفظ أبناء جنسه، وأعد عدة تصلح لرمسه، واستدرك في يومه ما مضى من أمسه قبل ظهور العجائب ومشيب الذوائب وقدوم الغائب وذم الراقب. إنه سميع الدعاء.

● **أخي:**

حقيق بالتواضع من يموت ... وحسب المرء مِنْ دنياه قوت

فما للمرء يصبح ذا اهتمام ... وحزن لا تقوم به النعوت

فيا هذا سترحل عن قريب ... إلى قوم كلامهم السكوت

***

قل للمُفَرّط يستعد ... ما من ورود الموت بُدُّ

قد أَهْلَكَ الدهرُ الشبا ... بَ وما مضى لا يُسْتَرَدُّ

أو ما يخاف أخو المعاصي ... من له البطش الأشد

يومًا يعاين موقفًا ... فيه خطوب لا تُحد

فإلى ما يشتغل الفتى ... في لهوه والأمر جد

أبداً مواعيد الزما ... ن لأهله تعب وكد

يا من يؤمِّل أن يقيـ ... ـم به وحادي الموت يحدو

وتروح داعيةُ المنُو ... نِ على مؤملها وتغدو

يختال في ثوب النَّعِيـ ... ـم ودونَه قبرٌ ولحد

والعمر يقصر كلَّ يو ... م ثم في الآمال مد

عجبًا لعيني كيف يطرقها الكرى ... ولحيلتي وقد انجلى عنِّي المرا

ألهو وأعلم أنه قد فُوِّقَتْ ... نحوي سهام الحتف أم حيني كرى

وإذا هممت بتوبة وإنابة ... عرضت لي الدنيا فعدت القهقرى

كم قد سمعت وقد رأيت مواعظًا ... لو كنت أعقل حين أسمع أو أرى

أين الذين طغوا وجاروا واعتدوا ... وعتوا وطالوا واستخفوا بالورى

أو ليس أعطتهم مقاليدُ العُلا ... حتى لقد خضعت لهم أُسد الشَّرى

وتمسكوا بحبالها لكنّها ... فَصمتْ لهم منها وَثِيقات العُرى

ما أخلدتهم بعد سالف رفعة ... بل أنزلتهم من شماريخ الذُّرى

وإلى البلى قد نقلوا وتشوهت ... تلك المحاسن تحت أطباق الثرى

لو أخبروك بحالهم ومآلهم ... أبكاك دَهرك ما عليهم قد جرى

أفناهم من ليس يفنى مُلكه ... ذو البطشة الكبرى إذا أخذ القرى

فاصرف عن الدنيا طماعك إنما ... ميعادها أبداً حديث يفترى

وصِل السُّرَى عنها فما ينجيك مِن ... آفاتها إلا مُواصلةُ السُّرَى

## • قال الشاعِرُ:

إنّ السعيد لَمُدرك دركًا ... وأخو الشقاوة فهو في الدَّرَكِ

وإلى الخمول مآل ذي لَعبٍ ... وإلى السُّكونِ مصير ذي حَركِ

طار الحِمَامُ وغاص مُقتدراً ... فأمات حتى الطير والسمك

إن الزمان إذا غَدا وعَدا ... قَتل الملوكَ بكلِّ مُعترك

والعين تُبصر أين حَبَّتُها ... لكنها تَعمى عن الشَّركِ

أنكرتُ هذا الموتَ فارتبكت ... نفسي هناكَ أشدَّ مُرتَبكِ

ما ضرَّ ذاكَره وناظِره ... أن لاينام على سِوى الحسَكِ

تيَّقظ فإنكَ في غفلةٍ ... يميدُ بك السُّكْرُ فيمن يميدْ
وأيّ منيع يَفُوت البلَى ... إذا كان يَبْلَى الصَّفَا والحديدْ
إذا الموتُ دَبَّت له حِيلةٌ ... فتلك التي كنتَ منها تَحِيدْ
أراك تُؤمِّل والشيبُ قد ... أتاك بنعيك منه بَرِيدْ
وتنقص في كل تنفيسة ... وعندك أنك فيها تزيدْ

أما تعلم أن الموت يسعى في تبديد شَملك؟ أما تخاف أن تُؤْخذ على قبيح فعلك؟ وا عجبًا لك من راحلٍ تركت الزاد في غير رَحلك!.

يا واقفًا تسأل القبورَ أفِقْ ... فأهلها اليومَ عنك قد شُغِلوا
قد هالَهم مُنْكَرٌ وصاحِبه ... وخَوفُ ما قدَّموا وما عَمِلوا
رَهائنُ للثَّرَى على مَدَرٍ ... يُسمع للدود بينهم زَجَلُ
سَرى البِلَى في جسومهم فَجرت ... دمًا وقيحًا وسالت المُقَلُ
سَكرى ولم يشربوا الفِقَار ومن ... كئوس المنون ما نَهِلُوا

● أين من لَعِب ولها؟ أين منْ غفل وسَها؟ دهَاه أفظع ما دَهَى، وحُطَّ رُكْنه فوَهَى، ذهبت لذةُ ذنوبه وحُبس بها، نظر في عاجله ونسِي المنتهى.

نادِ القُصورَ التي أقْوتْ مَعالمِهُا ... أين الجسُوم التي طابَتْ مَطَاعِمُها
زينَ الملوكُ وأبناء الملوك ومَن ... ألهاه ناضِرُ دنياه وناعِمُها
أين الأسودُ التي كانت تحاذِرها ... أُسْد العرينِ ومن خوفٍ تُسالمِها
أين الجيوشُ التي كانت لو اعترضت ... لها العُقَاب لخانَتها قوادِمُهَا
أين الحِجَاب ومن كان الحجاب له ... وأين رُتْبته الكبَرى وخادِمُها
أين الذين لَهواْ عمًّا له خُلِقوا ... كما لَهتْ في مراعيها سوائِمُها
أين البيوتُ التي من عَسْجدٍ نُسجَتْ ... هل الدنانير أغنَتْ أم دراهِمها

أين الأسِرَّة تعلوها ضَراغِمها ... هل الأسِرَّة أغنَتْ أم ضراغِمها
هذي المعَاقِلُ كانت قبلُ عاصمةً ... ولا يرى عِصَم المغرور عاصمُها
أين العيونُ التي نامتْ فما انتبهت ... واهًا لها نومةً ما هَبَّ نائِمُها

* * *

أيها السكرانُ بالآ ... مال قد حان الرحيلُ
ومَشِيب الرأسِ والفَوْ ... دَيْن للموتِ دليلُ
فانتبه من رقدة الغفـ ... ـلةِ فالعمر قليلُ
واطَّرحْ سوف وحتى ... فهما داءٌ دَخيلُ

* * *

اغتنِمْ في الفراغِ فَضْلَ ركوعٍ ... فعسَى أن يكون موتُك بَغْتة
كم صحيحٍ رأيتَ من غير سُقمٍ ... ذهبَتْ نفسُه السليمةُ فَلْتة

كتب زِرُّ بن حُبَيْش إلى عبد الملك بن مَرْوان: لا يُطْمعنك في طول الحياة ما ترى من صحة بَدنك واذكر قول الأول:

إذا الرجالُ ولَدَتْ أولادُها ... وبَلِيت من كِبَر أجسادُها
وجَعلتْ أسقامُها تَعْتادها ... تلك زُروعٌ قد دنا حَصادُها

فلما قرأ الكتابَ بكى حتى بُلَّ طرف ثوبه.

● **أخي:**

أللعُمْر في الدنيا تجِدّ وتعْمُر ... وأنت غداً فيها تموتُ وتُقْبَرُ
تلقح آمالاً وترجو نِتَاجها ... وعمْرك مما قد ترجِّيه أقصرُ
وهذا صباحُ اليوم ينعاك ضوؤه ... وليلته تنعاك إن كنت تشعُرُ
تَحُوم على إدراك ما قد كُفِيتَه ... وتُقْبل بالآمالِ فيه وتُدْبرُ

ورزقُك لا يَعْدوك إمّا مُعجَّلٌ ... على حاله يومًا وإما مُؤَخَّرُ
فلا تأمن الدنيا إذا هي أقبلتْ ... عليك فما زالت تَخُون وتَغْدرُ
فما تمَّ فيها الصفوُ يومًا لأهله ... ولا الرفق إلا ريثما يتغيَّرُ
تذكَّر وفكِّر في الذي أنت صائرٌ ... إليه غداً إن كنت ممن يفكِّرُ
فلا بد يومًا أن تصير لحفرةٍ ... بأَثْنائها تُطْوَى إلى يوم تُحْشَرَ

***

● وقال الشاعر:

أتُنكر أمر الموتِ أم أنتَ عارفٌ ... بمنزلةٍ تفنى وفيها المتَالِفُ
كأنك قد غُيِّبت في اللحد والثَّرَى ... كما لَقِيَ الموتَ القرونُ السوالفُ
أرى الموتَ قد أفنى القرونَ التي مضتْ ... فلم يبقَ مألوفٌ ولم يبق آلِفُ
كأنّ الفَتى لم يَصْحب الناسَ ليلةً ... إذا عُصِبت يومًا عليه اللفائفُ
وقامت عليه عُصْبةٌ يَدْفنونه ... فمستذْكِرٌ يبكي حزينًا وهاتفُ
وغيِّب في لحدٍ كريهٍ فِناؤه ... ونُضّدَ من لَبْن عليه السَّقائفُ

***

● قال ميمون بن مهران:

خرجتُ مع عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى المقبرة، فلما نظر إلى القبور بكى، ثم أقبل عليّ فقال: يا أبا أيوب: هذه قبور آبائي كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذتهم وعيشهم، أما تراهم صَرْعَى قد حلَّت بهم المَثُلاَت واستحكم فيهم البلاء، وأصاب الهوامُّ في أبدانهم مَقِيلاً! ثم بكى حتى غشي عليه، ثم أفاق فقال: انطلقْ بنا فواللّه ما أعلم أحدًا أنعم ممن صار إلى هذه القبور وقد أمِن من عذاب اللّه عز وجل.

صُــورٌ طــواهــا المــوتُ طَـيًّـا ... كــانــت مــحــبَّــبــةً إلـيَّـا
تَــبْــلــى ويــأكــلــهــا الــتــرا ... بُ وذِكْــرهــا غَــضٌّ إلـيَّـا
صــرعَــى بــأنــواع الحــتــو ... فِ كــأنــهــم شَــرِبــوا الحُـمَـيَّـا
لَــهْــفِــي عــلــى تــلــك الــوجــو ... هِ وهــلْ يــردُّ الــلَّــهْــفُ شَــيَّــا
أبــكــي عــلــيــهــم ثــم أرْ ... جِع بــعــدَهــم أبــكــي عَــلــيَّــا
أنــا مــيِّــتٌ بــعــدَ الحــيــا ... ةِ ومــيِّــت لــلــحُــرْن حَــيَّــا
بَــيْــتِــي الــثــرَى ولــو أنــنــي ... نِــلْــت الــســمــاءَ أو الــثُّــريَّــا
ولــو اعــتــبــرت لــعــاد لــي ... غَــيْــلان وهــو يــذمّ مَــيَّــا
مَــنْ لــلــســمــاءِ بــأن تــدو ... مَ وأنــهــا تُــدْعــى سُــمَــيَّــا
هــيــهــات لا تــرجــو الــبــقــا ... ءَ وابــكِ نــفــسَــك يــا أُخَــيَّــا

● كان الحسن يقول: الثَّواءُ ها هنا قليل، وأنتم آخر أمتكم، وأمتكم آخر الأمم، وقد أُسرع بخياركم، فماذا تنظرون إلا المعايَنة، فكأنها والله قد كانت، ما بعدَ نبيكم نبيّ ولا بعد كتابكم كتاب، ولا بعد أمتكم أمّة، تسوقون الناسَ والساعة تَسُوقكم، وما ينتظر أوَّلكم إلا أن يلحق آخرُكم، فيا لها موعظة لو وافقت من القلوب حياة.

رضِيَ الفتى بَعنائه وشقائه ... لو أن ظلّ بقائه ممدودُ
ويحٌ له ما إن يعدّ لنفسه ... ويُبيده نَفسٌ له معدودُ
يُغْذَى بأسقيةٍ له وألذَّة ... لو كان ينفع في الحياة لدودُ
ملِكٌ يشيِّد ما بنَى ويَشيد أرْ ... كان البِنَاء وركنُه مهدودُ
ويرى طريقَ الحق كلُّ أخي حجًا ... وكأنه عن فعله مَصْدودُ
جَسدٌ يكِدُّ لأن يفوز بقُوتِه ... فإن استراح فقلبُه المكدودُ

• كان خُلَيْد البصري يقول: كلنا قد أيقن بالموت وما نرى له مستعدًا، وكلنا قد أيقن بالجنة وما نرى لها عاملاً، وكلنا قد أيقن بالنار وما نرى لها خائفا، فعلام تَعرِّجون وماذا عسيتم تنتظرون؟ فهذا الموت أول واردٍ عليكم من اللَّه بخير أو بشر. فيا إخوتاه سيروا إلى ربكم سيرًا جميلاً.

سيكفي بَعْضُ ما فاتك ... فلا تأسَ لما فاتَكْ
ولا تَرْكن إلى الدنيا ... أمَا تَذْكر أمواتَكْ

• أيها الناس تقوَّوْا بهذه النعم التي أصبحتم فيها على الهرب من النار الموقَدة التي تَطَّلع على الأفئِدة، فإنكم في دار الثَّواءُ فيها قليل، وأنتم فيها مؤجلَّون وخلائف من بعد القرون، الذين استقبلوا من الدنيا زخرفها وزهرتها، فهم كانوا أطول منكم أعمارًا وأمدَّ أجسامًا وأعظم آثارًا، فَجدّدوا الجبال وجابُوا الصخور، ونقَّبوا في البلاد مؤيَّدين ببطش شديد وأجسام كالعِمَاد، فما لبثت الأيام والليالي أن طوت مُدَّتهم، وعفَّت آثارهم، وأَخْوت منازلهم، وأَنْست ذِكْرهم، فما تُحسُّ منهم من أحد ولا تسمع لهم رِكْزًا. كانوا بلهو الأمل آمنين كبيَات قومٍ غافلين، أو كصباح قومٍ نادمين، ثم إنكم قد علمتم الذي قد نزل بساحتهم بَياتًا فأصبح كثير منهم في ديارهم جاثمين، وأصبح الباقون ينظرون في آثار نقمة وزوال نعمة ومساكن خاوية، فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم.

• **أخي:**

مَنْ لَكَ إذا ألمّ الألم، وسكت الصوت وتمكن الندم، ووقع بك الفوت، وأقبل لأخذ الروح مَلك الموت، وجاءت جنوده وقيل من راق. ونزلتَ منزلاً ليس بمسكون، وتعوّضْتَ بعدَ الحركات السكون، فيا أسفًا لك كيف تكون، وأهوال القبر لا تطاق، وفُرّق مالك وسُكنت الدار، ودار البلاء فما دار إذ

دار، وشغلك الوزر عمن هجر وزار، ولم ينفعك ندم الرفاق.

● وكان بِشْر الحافي إذا ذُكر عنده الموت يقول: ينبغي لمن يعلم أنه يموت أن يكون بمنزلة من جَمع زاده فوضعه على رحله لم يدع شيئًا مما يحتاج إليه إلا وضعه عليه.

● **أخي:**

حياة وموت وانتظار قيامةٍ ... ثلاث أفادتنا ألوفَ مَعانِي

فلا تَمْهرُ الدنيا الدنيّة إنها ... تفارق أهليها فراق لِعَانِ

ولا تطلبوها من سنانٍ وصارم ... بيوم ضراب أو بيوم طعانِ

فإن شئتما أنَ تخلُصَا من أذاتها ... فحُطَّا بها الأثقالَ واتَّبعانِي

عجبتُ من الصبح المنير وضدِّه ... على أهل هذا الضد يطَّلعان

وقد أخرجاني بالكراهة منهما ... كأنهما للضيف ما وَسعاني

دَعانِي إلى هذا التفرّد إنني ... خبيرٌ فجِدًّا في السُّرَى ودعانِي

● **ولله درّ القائل:**

أتَغُرُّني آمالَيه ... بعدَ القرونِ الخاليَهْ

أهلُ المراتب والمناصـ ... ـبِ والقصورِ العالَيهْ

عادت لهم دنياهُم ... بعدَ المودة قاليَهْ

نادت منازلهم قِفُوا ... وتأمَّلوا أطلاليَهْ

فغُموض باطنِ حالهم ... يُبْديه ظاهرُ حاليَهْ

كانوا عقوداً عُطِّلتْ ... منها النُّحور الحاليَهْ

إنّي لأَذكر مَعْشَراً ... ما النفسُ عنهم ساليَهْ

فأقول والَهْفِي على ... تلك الوجوه الباليَهْ

• **أيها اللاهي في سكرته:**

أنسيتَ يا مغرورُ أنك ميتُ ... أَيْقِنْ بأنّك في المقابر نازلُ
تَفْنَى وتَبْلى والخلائقُ لِلْبَلى ... أبمِثْل هذا العيشِ يَفْرح عاقلُ

***

إني سألت التراب ما فعلتْ ... بعدُ وجوهٌ فيك منعفره
فأجابني صيَّرتُ ريحهمُ ... يؤذيك بعدَ روائِح عَطِره
وأكلت أجساداً منعَّمةً ... كان النعيم يهزها نَضِره
لم يَبْقَ غيرُ جماجِمٍ عَرِيت ... بِيضٍ تَلُوح وأعظمٍ نَخِره

***

حُمل كل منهم في كَفن، إلى بيت البِلَى والعفَن، وما صحبهم غيره من الوطن، من كل ما كانوا يجمعون ﴿**مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ**﴾. ضمهم والله التراب، وَسُدَّ عليهم في ثَراهم الباب، وتقطعت بهم الأسباب، والأحبابُ يرجعون ﴿**مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ**﴾.

• **ولله درّ من قال:**

خُلِقْنا لأحداث الليالي فرائسًا ... تزفّ إلى الأجداث منا عرائسًا
تجهِّز منا للقبور عساكراً ... وتُرْدِف أعوادَ المنايا فوارسًا
إذا أمَلٌ أرخَى لنا من عَنانه ... غدا أجَلٌ عما نحاوِل حابسًا
أرى الغُصْن لما اجتُثّ وهو بمائه ... رَطيبًا وما أصبح الغُصن يابسًا
نَشِيدُ قصوراً للخلود سفاهةً ... ونصبر ما شئنا فتوراً دَوَارسًا
وقد نَعت الدنيا إلينا نفوسنا ... بمن مات منا لو أصابت أكايسًا
لقد ضَرِبتْ كسرى والملوك وتُبَّعا ... وقيصر أمثالاً فلم نر قائسًا

نرى ما نرى منها جِهَاراً وقد غدا هواها على نور البصيرة طامِسًا

وقد فضح الدنيا لنا المـوتُ واعظًا وهيهات ما نزداد إلا تَقاعُسًا

• **ورحم الله القائل:**

أبدًا تفهِّمنا الخطوب كرورها وتعودُ في عَمَهٍ كمن لا يفهمُ

تَلْقَى مَسامعنَا العِظاتُ كأنما في الظل يَرْقُم وعظَه من يرقمُ

وصحائف الأيام نحن سُطورها يقرا الأخير ويَدْرج المتقدِّمُ

لَحْد على لحدٍ يُهَالُ ضريحه وبأعظم رِمَمٌ عليها أَعْظُمُ

من ذا توقَّاه المنون وقَبْلنا عادٌ أطاحهم الحِمَامُ وجُرْهمُ

والتُّبَّعان تَلاحقَا ومُحَرِّق والمنذران ومالك ومتمِّمُ

• **يا ابن الأموات ويا خليفة الأموات:**

ضيَّعت وقتك فانقضى في غفلةٍ وطويتَ في طَلَب الخوادع أَدْهُرَا

أفهمت عن هذا الزمان جوابَه فلقد أبانَ لك العِظاتِ وكرَّرَا

عاينتَ ما ملأ الصدور مخافةً وكفاك ما عاينته من أخْبَرِا

• يا عجبًا كيف أنِس بالدنيا مفارقها، وأمِن النارَ واردُها، كيف يغفل من لا يُغفل عنه، كيف يفرح بالدنيا من يومُه يهدم شهرَه، وشهره يهدم سَنَته وسَنَته تَهدْم عُمره، كيف يلهو من يقوده عمُره إلى أجله وحياته إلى موته؟!.

• **سكان القبور غداً:**

إنكم تغدون وتروحون في آجال قد غُيِّبت عنكم وإنّ أجل المرء ليس بيده.

• ويحك أنت في القبر محصور إلى أن ينفخ في الصُّور، ثم راكب أو مجرور، حزين أو مسرور، مُطْلَق أو مأسور، فما هذا اللهو والغرور. الحازم من تزود لما به قبل أن يصير لمآبه.

● إخواني إنكم تَغْدون وترُوحون في آجال قد غيِّبت عنكم، فانظروا لخلاصكم قبل انقضاء أعماركم، الوحَا الوحَا، فالطالب حثيث، تذكروا تلك الصَّرْعة بين الأهل وهم لا يقدرون على ضرٍّ ولا نَفْع، واللَّه ما بات عاقلٌ قط إلا على فراش حَذر، إنما هو دَبيب من سُقْم ثم تؤخذون بالكظم، فإن زلَّت القدم لم ينفع ندم، لا توبة تُنال ولا عثرة تُقَال ولا فداء بمال.

أأَغْفَلُ والدهر لا يَغْفل ... وأنسَى الذي شأنُه أَعْضَلُ
ويُطْمعني أنني سالمٌ ... وداءُ السلامة لي أَقْتَلُ
ويمضي نهاري وليلي معًا ... بما غيره الأحْسَن الأَجْمَلُ
وآمل أني أفوت الحمام ... أمانٍ لعَمرك لي ضُلَّلُ
وكيف يرى آخِرُ أنَّه ... سَيْبقى وقد هلَك الأولُ
فحتى متى أنا لا أَرْعَوي ... وكم ذا أقول ولا أفعل
أيا ذاهِلاً ونداءُ الحتوفِ ... في الناس توقظ من يَذْهل
ألا أين أهلُ النعيم العزيز ... وأين الأجَالدُ والبُزَّلُ
تناولهم من قِلاَل القُصور ... فأهلكهم مُزْعِجٌ مُعْجِلُ

## ● أخي: يا من يَشْقى ولا يُحمد:

ألا يا لقومي لحيٍّ رَدِي ... وللمرء يَجْهل ما في غدِ
وللميت جمَّع أمواله ... لآخر في الحيِّ لم يَجْهَدِ
سُيلْقيك أهلك والحاملون ... وأعضاء جسمك لم تبردِ
ويصبح مالك للوارثين ... وأنت شَقِيت ولم تُحْمدِ

***

**• ولله در من يستمطر الدمع حين يقولُ:**

ونـادَتـنـا الـرسـوم وهُـنّ صُـمٌّ ... ومَنْطِقها المعاجم والسِّطَارُ

وكـان اليأسُ أجملَ فانصرفنا ... ودمعُ العين مَجْراه انحدارُ

• زار عمر بن عبد العزيز قبور آبائه، ثم رجع وهو يبكي، فقال لأصحابه: ناداني التراب: ألا تسألُني عمّا صنعتُ بأحبابك؟ فقلت: ما فعلتَ؟ قال: فصلت الكفَّين من الساعدين والقدمين من الساقين، وفعلتُ وفعلت. فلما ولَّيت ناداني: ألا أدلك على كفن لا يبلى؟ قلت: بلى. قال: التقوى.

**• إخواني: سَلُوا المقابر بألسنة الفِكَر تجبكم بكلام العِبَر:**

عُوجوا فحيُّوا لنُعْم دِمْنة الدار ... ماذا تُحَيُّون من نُؤْيٍ وأحجار

أقوى وأقفر من نُعْم وغيرَّها ... هُوجُ الرياح بهاري التُّرْبِ مَوَّارِ

وقفتُ فيها سَراة اليوم أسألها ... عن آل نُعْم أمُونًا عُبْر أسفارِ

فاستعجمتْ دارُ نُعْمَى ما تُكلِّمنا ... والدارُ لو كلَّمتنا ذاتُ أخبارِ

فما وجدتُ بها شيئًا أعِيج به ... إلا الثُّمامَ وإلا مَوْقدُ النار

• كان حبيب العجمي إذا أصبح بكى، وإذا أمسى بكى فَسُئِلت زوجته عن بكائه، فقالت: يخاف والله إذا أمسى أن لا يصبح وإذا أصبح أن لا يمسي.

يقول لي: إن مِتُّ فافعلي كذا واصنعي كذا.

• وكان شُمَيْط بن عَجْلان يقول: أيها المغترّ بصحته أما رأيت ميتًا من غير سقم؟ أيها المغتر بطول المهلة أما رأيت مأخوذًا من غير عِلّة؟!

• كان شيخ متعبد في تَيْم الله يجتمع إليه فتيان الحي فيعظهم، فإذا أرادوا أن يتفرقوا قال: يا إخوتاه قوموا قيامَ قومٍ قد يئسوا من المعاودة لمجلسهم

خوفًا من ورطات الذنوب وخوفًا من خطفات الموكَّل بالنفوس فَيْبكي. ويبكِّي.

● وكان يزيد الرَّقَاشِيُّ يقول: إلى متى تقول غدًا أفعل كذا وبعد غدٍ أفعل كذا؟ أغْفلت سَفرك البعيد ونسيت الموتَ، أمَا علمت أن دون غدٍ ليلةً تُخْترم فيها أَنْفُس، أما رأيت صريعًا بين أحبابه لا يقدر على ردّ جوابهم؟!

## ● أيها الغافلُ:

يا مشغولاً بما لديه عما بين يديه، يا غافلاً عن الموت وقد دنا إليه، يا ساعيًا إلى ما يضره بقدميه، يا مختار المؤذي له من حالتيه، يأمن الدهر وقد رأى صَرْفَيْه، كم عايَن ميّتًا لو اعتبر بعينيه، إنما أغار على شبابه هاجمٌ على فَوْديه، أينفعه يوم الرحيل دمع يملأ خديه؟ يا من يصير عن قليل إلى حُفْرة، تنبّه لنفسك من هذه السَّكْرة، لو أنك تذكَّرت لحدك.

## ● أخي:

كيف تَبيت وحدك، ويباشر الترابُ خدَّك وتتقسَّم الديدان جلدك، ويضحك المحب بَعْدك ناسيًا عنه بُعْدك، والأهلُ قد وجدوا المالَ وما وجدوا فَقْدك، إلى متى وحتى متى تترك رُشْدك، أما تُحْسِن أن تُحْسِن قَصْدك، الأمر مُجِدّ جدًّا فالزم جِدَّك.

ذهب الأحبة بعد طول تَوددٌ ... ونأى المزارُ فأسلموك وأقشعُوا
خَذلوك أفْقَر ما تكون لغُرْبة ... لم يؤنسوك وكُربةً لم يَدفعوا
قُضِي القضاءُ وصرت صاحب حُفْرة ... عنك الأحبةُ أعرضوا وتصدَّعوا

## ● أخي:

يَجدُّ بنا صَرْفُ الزمانِ ونَهْزلُ ... ونُوقَظ بالأحداث فيه ونَغْفلُ
وما الناس إلا ظاعِنٌ أو مودِّع ... ومُسْتَلبٌ مستعجَل أو مُؤجَّلُ

وما هــذه الأيــام إلا مَــنــازلُ إذا ما قَطعْنا منزلاً بان مَنْزلُ
فَنَاءٌ مُلحٌّ ما يُغِب جميعَنا إذا عاش منا آخر مات أوَّلُ
وكم صاحبٍ لي كنت أكره فقده تسلَّمه منِّي الفَناء المعجَّلُ

اسمعوا عظة الزمان إن كنتم تسمعون وتأملوا تقلّبَ الأحوال إن كنتم تبصرون.

● قال يحيى بن معاذ: لو سمع الخلائقُ صوتَ النياحة على الدنيا من ألسنة الفناء لتساقطت القلوب منهم حُزْنًا، ولو رأت العقول بعين الإيمان نزهة الجنة لذابت النفوسُ شَوْقًا، ولو أدركت القلوب كُنْه المحبة لخالقها لتخلّعت مَفَاصلها ولَهًا. فسبحان من أغفل الخليقةَ عن كُنْه عين هذه الأشياء، وألهاهم بالوصف عن حقائق هذه الأنباء:

من نال من جوهر الأشياء بُغْيتَه يَأْسى وَيحْقر قومًا حظُّهم عرَضُ
إني لأعجب من قوم يَشفُّهمُ حبُّ الزخارف لا يَدْرون ما الغرضُ
ألا عقولٌ ألا أحلام تَزْجرهم بلى عقول وأحلام بها مرضُ

● **أخي:**

تزوَّد من الدنيا فإنك هالك وتترك للأعداء ما أنت مالكُ
ووسِّع طريقًا أنت سالكه غداً فلا بد من يوم تَضيق المَسالكُ

● **أخي:**

كأنك بالمضيِّ إلى سبيلك وقد جَدَّ المجهِّز في رحيلكْ
وجيء بغاسلٍ فاستعجَلُوه بقولهم له افرغْ من غسيلكْ
ولم تَحْمل سِوى خِرق وقُطْن إليهم من كثيرك أو قليلكْ
وقد مَدَّ الرجالُ إليك نعْشًا فأنت عليه مُمْتَدًّا بطولكْ

وصلَّوا ثم إنهمُ تداعَوْا … بحَمْلك في بُكُورك أو أصيلكْ

فلما أَسْلكوك نزلتَ قبراً … ومن لك بالسلامة في نُزولكْ

أعانك يومَ تدخله رحيمٌ … رءوفٌ بالعِبَاد عل دخولكْ

فسوف تجاور الموتى طويلاً … فَدعْني من قصيرك أو طويلكْ

أخي إنّي نصحتك فاستمعْ لي … وباللّه استعنتُ على قَبُولكْ

ألست ترى المنايا كلَّ يوم … تُصيبك في أخيك وفي خليلكْ

## • أخي! لا ترقدن لعينك السهرُ:

لا تَرْقُدنَّ لعينك السَّهَرُ … وانظر إلى ما تصنْعُ الغِيَرُ

انظر إلى عِبَر مصرَّفةٍ … ما دام يمكن طَرْفَك النظرُ

ما زِلْت تسمعُ أو ترى عِبَراً … إن لَم يخُنك السمعُ والبصَرُ

فإذا جَهِلْت ولم تجد أحداً … فسل الزمان فعنده الخَبرُ

وإذا نظرت تريد مُعْتَبراً … فانظر إليك ففيك مُعْتَبرُ

أنت الذي تُمسي وتصبح في الـ … دنيا وكلُّ أموره غَرَرُ

أنت المُصرَّف كان في صِغَرٍ … ثم استقلَّ بشخصه الكِبَرُ

أنت الذي تَنعاه خِلْقتُه … يَنْعاه منه الشَّعْر والبشَرُ

أنت الذي تُعْطَى وتُسْلَب لا … يُنْجيه من أن يُسْلَب الحذَرُ

أنت لا شيءَ منبه له … وأحقُّ منك بما لكَ القدَرُ

والحادثاتُ صُروفها عَجَبٌ … والعيش فيه الصَّفْو والكَدرُ

يَبْغي بنو الدنيا عِمَارتها … ولَيَخْرَبنَّ جميعُ ما عَمَروا

عجبًا من الدنيا ومن عبر الد … نيا وكيف تُصرَّف الغِيَرُ

ما زِلْت مُذ صُوِّرْتَ في سَفَر … وستنقضِي وسينقضي السَّفَرُ

يـا مـن يـؤمِّـل أنـت مـنـتـظـر أمـلاً يـطـول ولـسـت تـنـتـظـرُ
مـاذا تـقـول وأنـت فـي غُـصَـص مـاذا تـقـول وأنـت مُـحْـتَـضَـرُ
مـاذا تـقـول وقـد وضِـعْـت عـلـى ظَـهْـر الـسـريـر وأنـت تُـبْـتَـدرُ
مـاذا تـقـول وأنـت فـي جَـدَثٍ مـاذا تـقـول وفـوقـك المـدَرُ
مـاذا تـقـول وقـد لحـقـت بمـا يـجـري عـلـيـه الـرِّيـحُ والمـطـرُ
نَـبْـغـي الـبـقـاءَ ولا بـقـاء لـنـا تَـتَـعـاور الـرَّوَحـاتُ والـبـكَـرُ
كـم قـد عـفَـتْ عـينٌ لـهـا أثَـرٌ درَسـتْ ويَـدْرُس بـعـدهـا الأثَـرُ

## • يا ساكن اللحد غداً:

أين الـوالدون وما ولـدوا، أين الجبـارون وأين مـا قصدوا، أيـن أرباب المعاصي على ماذا وردوا، أما جَنوا ثمراتِ ما جنوا وحصَدوا، أما قدموا على أعمـالهم في مآلهـم ووَفَدُوا، أما خَـلَوا فـي ظلمـات القبـور؟ بكوا والـلَّه وانفـردوا، أما ذلوا وقَـلُّوا بعـد أن عَتوا ومَردُوا، أمَـا طلبـوا زادًا يكفـي في طريقهـم ففقدوا، أما حلَّ المـوتُ فَحلَّ عَقْد ما عـقَدوا، عاينوا واللَّـه كلَّ ما قَدَّموا ووجدوا، فمنهم أقوامٌ شَقُوا وأقوامُ سَعدوا:

لا والـدٌ خـالـدٌ ولا ولَـدُ كـلُّ جـلـيـد يَـخُـونـه الجَـلَـدُ
كـأن أهلَ الـقـبـور لـم يـسـكـنـوا الدُّ ورَ ولـم يَـحْـيَ مـنـهـمُ أحـدُ
ولـم يـكـونـوا إلا كـهـيـئـتـهـم لـم يـولَـدوا قَـبْـلـهـا ولـم يَـلِـدوا
يـا مـن نَـعَـى مـن مضـى كـذاك غـداً تُـنْـعـى، فـبـادرْ فـقـد أتـاك غَـدُ
يـا نـاسـي المـوت وهـو يـذكـره مـا لـك بـالمـوت إذا أتـاك يَـدُ
دارُك دارٌ يمـوت سـاكـنُـهـا دارك يُـبْـلـي جـديـدَهـا الأبَـدُ
تـبـكـي عـلـى مـن مضـى وأنـت غـداً يـوردك المـوتُ فـي الـذي وردُوا
لـو كـنـت تـدري مـاذا يـريـد بـك الـ مَـوْت لأبـكـى جـفـونَـك الـسُّـهْـدُ

● **أخي**: قل لي بربك أي شيءٍ زاد الميت؟

فما تزوَّد مما كان يَجْمعه ... إلا حَنوطًا غداةَ البَيْن في خِرَقِ
وغير نفخة أعوادٍ يُشَبُّ له ... وقَلَّ ذلك من زادٍ لمُنطلِقِ

● وعظ أعرابي ابنه فقال: أي بني إنه من خاف الموتَ بادر الفَوْت، ومن لم يكبح نفسه عن الشهوات أسرعت به التَّبِعات، والجنة والنار أمامك.

أضْحَكَ سِنَّكَ بُعْدُ الأمل ... ولم يُبْكِ عينكَ قُرْبُ الأجَلْ
كأنك لم تَرَ حيًّا يُساق ... ولم تَرَ مَيْتًا على مُغْتَسلْ

● **يا أنا:**

كم أسمعك الموت وعيدك، فلم تنتبه حتى قطع وريدك، ونقض منزلك وهدم مَشِيدك، ومزَّق مالك وفرق عبيدك، وأخلى دارك وملأ بِيدَك، أما رأيت قَرينك؟ أما أبصرت فقيدك؟.

● **حتام يا ذا النُّهى لا ترعَوِي:**

نَبْني ونجمع والآثار تَنْدرسُ ... ونأمل اللُّبْث والأرواح تُختلسُ
ذا اللبّ فكِّر فما في الخُلْد من طَمع ... لا بُدَّ ما ينتهي أمرٌ وينعكسُ
أين الملوك وأبناء الملوك ومن ... كانوا إذا الناسُ قاموا هَيْبةً جلسُوا
ومن سيوفهم في كل معركة ... تُخْشَى ودونهم الحجَّاب والحرسُ
أضْحَوا بَمهْلكة في وسْط معركة ... صَرْعى وماشي الورَى ومن فوقهم يَطِسُ
وعمَّهم حَدث وضمَّهم حَدثُ ... باتوا وهم جُثَث في الرَّمْس قد حُبسُوا
كأنهم قَطّ ما كانوا وما خُلقوا ... ومات ذِكْرهم بين الورَى ونُسُوا
واللّه لو أبصرتْ عيناك ما صنعتْ ... يدُ البِلَى بهمُ والدودُ يَفْترسُ
لعايَنَتْ منظرًا تَشْجَى النفوسُ به ... وأبصرت نُكُرًا من دونه النكسُ

مـن أوجـهٍ نـاظـرات حـار نـاظـرهـا في رونـق الحسْـن كيـف تـنطـمـسُ
وأعـظُـم بـالـيـاتٍ مـا بـهـا رَمـقٌ وليـس تبـقى وهـذا وهـي تُـنْتَـهـسُ
وألـسـنٌ نـاطـقـاتٌ زانـهـا أدب مـا شـأنُـهـا شـأنَـهـا بـالآفـة الخـرَسُ
نـكَّسَـهـم ألـسـنٌ لـلـدهـر فـاغـرةٌ فـاهًـا فـآهًـا لـهـم إذ بـالـردَى وكُـسِـوا
عَـروا عـن الـوشْي لمَّـا أُلْبسـوا حُـلَـلاً من الرَّغَام على أجـسادهـم وكُسُـوا
وصار لُبْس الصَّفَايا من خَلائلهم جُون الـثـيـابِ وقِـدْمًـا زانَـه الـوَرْسُ
حَتَّام يا ذا النُّهى لا تَرْعوي سَفَهًا ودمعُ عينيك لا تـهْمِي وَيَنْبَجِسُ

* * *

ذهـب الأحـبـةُ بـعـد طُـول تـودّد ونـأى المـزارُ فـأسْـلـموك وأقْـشَـعُـوا
خَـذلـوك أفـقـر مـا تـكـون لـغُـربـة لـم يـؤنـسـوك وكُـرْبـةً لـم يَـدْفـعُـوا
قُضِـي القضاء وصرتَ صاحبَ حُفْرة عـنـك الأحـبـة أعْـرَضـوا وتـصـدَّعـوا

● **أخي:**

أين الـراحلون؟ كانـوا بالأمس. صحـت حجة الموت. فبطلت حـجة النفس. واعتقـلهم حاكم البلى. على دين الرمـس. وكف أكف الحس. بعد تصرف آلة الخـمس. واستوعر عليهـم الحصر. واستطال الحبـس. وأصبحت منازلـهم ﴿**كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ**﴾ يا قليل اللبـث. خل العبث. كم حدث جدث في حدث؟ يا موقنًا بالرحيل وما اكترث.

اقبل نصحي. ورم الشعث[1].

نـخـطو ومـا خـطـونـا إلا إلـى الأجـل ونـنـقـضـي وكـأن الـعـمـر لـم يـطـل
والـعـيـش يـؤذنـنـا بـالمـوت أولـه ونـحـن نـرغـب فـي الأيـام والـدول

(١) «المدهش» لابن الجوزي ص(١٤٦).

يأتي الحمام فينسي المرء منيته ... وأعضل الداء ما يلهي عن الأمل

ترخي النوائب عن أعمارنا طرفًا ... ونستقر وقد أمسكن بالطول

لا تحسب العيش ذا طول فتتبعه ... يا قرب ما بين عنق المرء والكفل

سلّى عن العيش أنا لا ندوم له ... وهون الموت ما نلقى من العلل

لنا بما ينقضي من عمرنا شغل ... وكلنا علق الأحشاء بالغزل

ونستلذ الأماني وهي مردية ... كشارب السم ممزوجًا مع العسل[1]

● ألا يعتبر المغرور؟ بمن قد دفنه. كم رأى جبارًا فارق مسكنه؟ ثم سكن مسكن مسكنة. المذلة يا راحلين بالإقامة. يا هالكين بالسلامة. أين من أخذ صفو ما أنتم في كدره؟ أما وعظكم في سيره بسيره؟ بلى. قد حمل بريد الإنذار أخبارهم. وأراكم تصفح الآثار آثارهم.

وحدثتك الليالي أن شيمتها ... تفريق ما جمعته فاسمع الخبرا

وكن على حذر منها فقد نصحت ... وانظر إليها تر الأيات والعبرا

فهل رأيت جديداً لم يعد خلقًا ... وهل سمعت بصفو لم يعد كدرا[2]

● **أخي:**

تفوز بنا المنون وتستبد ... ويأخذنا الزمان ولا يُرَدُّ

وانظر ماضيًا في إثر ماض ... لقد أيقنت أن الأمر جَدُّ

رويداً بالفرار من المنايا ... فليس يفوتها الساري المُجِدُّ

فأين ملوكنا الماضون قدمًا ... أعدوا للنوائب واستعدّوا

---

(١) «المدهش» ص(١٥٠).

(٢) «المدهش» ص(١١٥).

أعارهم الزمان نعيم عيش فيا سرعان ما استلبوا وردوا

هم فرط لنا في كل يوم نمدهم وإن لم يستمدوا[١]

● حالت غمايم الهوى بينكم وبين شمس الهدى. وغدا ما في يومكم يُنسيكم غدًا. حتى كأن الرحيل حديث خرافة. أو كأن الزاّد يفضل عن المسافة. أيها الشيوخ، آن الحصاد. أيها الكهول، قرب الجداد. أيها الشباب كم جرد الزرع جراد؟.

يا بن آدم لا تغررك عافية عليك شاملة فالعمر معدود

ما أنت إلا كزرع عند خضرته بكل شيء من الآفات مقصود

فإن سلمت من الآفات أجمعها فأنت عند كمال الأمر محصود[٢]

● عجبًا لذاكر الموت كيف يلهو؟. ولخائف الفوت وهو يسهو. ولمتيقن حلول البلى ثم يزهو. وإذا ذكرت له الآخر مر يلغو.

إني أرقت وذكر الموت أرقني فقلت للدمع أسعدني فأسعدني

إن لم أبك لنفسي مشعرًا حزنًا قبل الممات ولم آسف لها فمن

يا من يموت ولم تحزنه موتته ومن يموت فما أولاه بالحزن

لمن أثمر أموالي وأجمعها لمن أروح لمن أغدو لمن لمن

لمن سيرفع بي نعشي ويتركني في حفرتي ترب الخدين والذقن

● يا غافلاً عن الموت، وقد لدغه. أخذ قرينه، فقتله ودمغه. تأمل صنع الدهر، بالرأس إذ صبغه. بأي حديث ترعوي؟ أو بأي لغة؟.

كم رأيت مغرورًا قبلك؟. كم شاهدت منقولاً مثلك؟. من أباد أقرانك؟

---

(١) «المدهش» ص(١٥٦).

(٢) «المدهش» ص(١٥٧).

ومن أهلك أهلـك؟. لقد نادى الموت وقال: ما أنا بالـذي إذا سئل أقال. أنا الذي إذا مال على القوى أمال. أخذتم أمـاني؟ يا أهل الأماني والآمال. أين من كان فـي روح وسعة؟. نقلـته إلى مكان مـا وسعه. أين من كـان يخاف لبأسـه؟. انظروا ماذا عـوضته من لبـاسه. أين من كان عـلى نسائـه؟ شديد الغيرة. أما رحل عـنهن؟ فاخترن غيره. أين من كان يسـري؟ آمنًا في سربه. أما قيل للتلـف: خذه وسر به؟ أما عاقبه الألفة فرقة؟. أمـا آخر جرعة اللذة شرقة؟. أما ختام الفرح قلق وحرقة. أما زاد ذي المال إلى القبر خرقة؟. أعر سمعك الأصوات. فهل تسمع إلا فلانًا مات؟ أجل بصرك في الفلوات. فهل ترى إلا القبور الدارسات؟.

قـوض المـوت طـود عـزهـم الـشامـ ـــخ قـسـرا والـدهـر ذو حـدثـان

واسـتــرد الــذي أعــار ولــلأيــ ــام ظـهـرا خـشـونـة ولـيـان

وإذا صـاح صـايـح المـوت فـي قـ ــوم غـدوا كـل واحـد فـي مـكـان

يا ساكـنًا مسكن من قـد ازعج. يا شاربًا فـضلة من شرق. تصـحو في المجلس، ساعة من خمار الهوى. ثم تسلـيك حميا الكأس. هيهات ليس في البرق اللامع، مستمتع لمن يخوض الظلـمة. كم أعطف عطفك بلجام العظة؟ إلى عطفة اليقظة. فإذا انـقضى المجلس، عاد الطبع ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾ (وتأبـي الطباع على الناقل) يا من قد لجج في لجة الهوى. قارب الساحل في قارب. دنا رحيل الـرفقة. وما اشتريت لـلمسير قوت ليـلة. كلما جد اللـعب، فتر النشاط في الجد. صحح نقدة عملك، فقد انقرضت أيام الأسبوع. جود غزل عزمك. فـلربما لم تسامـح وقت الوزن. صابر غبـش العيش، فقد دنـا فجر الأجر. انتبه الاغتـنام عمرك، فكم يعيش الحيوان؟. مد بـحر القدرة، فجرى بمراكب الصور. فرست عـلى ساحل أقليم الدنيا. فعامـلت في موسم الحياة

مدة الجزر. ثم عاد المد فرد إلى برزخ الترب. فقذف محاسن الأبنية، في حفر اللحود. وسيأتي طوفان البعث، عن قرب. فاحذر أن تدفع دونك، سفينة النجاة. فتستغيث وقت الفوت، ولا عاصم. كأنك بك في قبرك، على فراش الندم. وإنه واللَّه لأخشن من الجندل. فازرع في ربيع حياتك، قبل جدوبة أرض شخصك. وادخر من وقت قدرتك، لزمان عجزك.

واعتبر رحلك، قبل رحيلك. مخافة الفقر، في القبر، إلى لازم الأخذ ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ﴾ يا هذا. مثل لنفسك صرعة الموت. وما قد عزمت أن تفعل حينئذ وقت الأسر. فافعله وقت الإطلاق[1] .

أتبكي على لبنى وأنت تركتها     فكنت كآت حتفه وهو طائع
فيا قلب خبرني إذا شطت النوى     بلبنى وبانت عنك ما أنت صانع

● كأنك بحرب التلف، قد قامت على ساق. وانهزمت جيوش الأمل. وإذا بملك الموت قد بارز الروح. يجتذبها بخطاطيف الشدائد، من تيار أوتار العروق. وقد أوثق كتاف الذبيح. وحار البصر لشدة الهول وملائكة الرحمة، عن اليمين. قد فتحوا أبواب الجنة. وملائكة العذاب عن الشمال. قد فتحوا أبواب النار. وجميع المخلوقات، تستوكف الخبر. والكون كله قد قام على صيحة، أما أن يقال: سعد فلان، أو شقي فلان، فحينئذ تتجلى أبصار ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي﴾ ويحك، تهيأ لتلك الساعة. حصل زادًا قبل العوز.

تمتع من شميم عرار نجد     فما بعد العشية من عرار[2]

---

(١) «المدهش» ص(١٨٢ ـ ١٨٤).

(٢) «المدهش» ص(١٨٤ ـ ١٨٥).

**• أخي:**

كم أخرج الموت نفسًا من دارها فلم يدارها؟ وكم أنزل أجسادًا بجارها لم يجارها؟ وكم نقل ذاتًا ذات خطاء بأوزارها. وكم أجرى عيونًا كالعيون بعد بعد مزارها؟

يا مغرمًا بوصال عيش ناعم ستصد عنه طائعًا أو كارها

إن المنية تزعج الأحرار عن أوطانهم والطير عن أوكارها

إخواني، قد حام الحمام، حول حماكم، وصاح بكم إذ خلا النادي وناداكم، وأولاكم من النصح حقكم، فما أحقكم بالتدبر وأولاكم. وهو عازم على اقتناصكم، وما المقصود سواكم. كم أخلى الموت دارًا فدارًا؟. أما استلب كسرى بن دارا؟ أدارى لما أخذ دارا؟ أما ترك العامر قفارًا؟ أما ذاق الغصص المرة مرارًا؟ لقد جال يمينًا ويسارًا، فما حابى فقرًا ولا يسارًا. يا هذا، مطايا العمر قد أعنقت، وأنت في مسامرة الأمل. معاول الساعات تهدم حايط الأجل[1].

**• أخي:**

لقد خوّفنا الموت بمن أخذ منا. ونعلم هجومه علينا، وقد أمنا. ما أذكرتنا المواعظ مآلنا؟، فما لنا ما لنا؟.

* * *

(١) «المدهش» ص(١٨٦).

يا من يشيع ببدنه الميت، فأما قلبه ففي البيت، أتخلي بين المودود؟ والدود، وتعود إلى المعاصي حين تعود. هلا أجلت بالبال ذكر البالي؟ وقلت للنفس الجاهلة: هذا لي. من زار القبور والقلب غافل، وسعى بين الأجداث والفكر ذاهل، وشغله عن الاعتبار لهو شاغل، فهو قتيل قد أسكره القاتل.

* * *

وما أعطى الصبابة ما استحقت … عليه ولا قضى حق المنازلْ

ملاحظها بعين غير عبرى … وزايرها بجسم غير ناحلْ[1]

* * *

- **أخي:**

تا اللَّه، لقد ركض الموت، فأسرع في الركض. بث الجنود، وطيف الأرض. ما حمل على كتيبة إلا وفض. ولا صاح بجيش إلا جاش وارفض. ولا لوح إلى طائر في البرج إلا انقض، إذا تكلمت قوسه بالنبض أسكنت النبض، بينا الحياة تعرب بالرفع. جعل الشكل الخفض. أين مصون الحصون؟ أزعج عنها. أين مقصور القصور؟ أخرج منها. نقله هادم اللذات نقلاً سريعًا. ومقله في بحار الآفات مقلاً فظيعًا. وفرق بينه بالبين وبين بنيه. وطرقه بطارق النقض، فانقض ما كان يبنيه. لقد ولى ولاء ذي ود ينفعه، وبان فبان لباني الدنيا مصرعه. هجره واللَّه من هاجر إليه. ونسيه نسيبه، وقد كان يحنو عليه. فلا صديقه صدقه في مورثه ولا رفيقه أرفقه في شدته، حلوا واللَّه بالبلاء في البلى، وودعهم من أودعهم ثم، ثم قلى. وانفردوا في

(١) «المدهش» ص(١٨٩ ـ ١٩٠).

الأخدود، بين وحش الفلا. وسألوا الإقالة، فقيل: أما هذا فلا. لو نطق الموتى بعد دَفنهم لندموا على غيهم وأفنهم، ولقالوا: رحلنا عن ظلم شرورنا إلى ظلم قبورنا. وخلونا عن الأخلاء بترابنا. في آفات لا ترى بنا. أفترى محبنا إذ ظعنا بمن اعتاض عنا؟ وهذا مصيرك بعد قليل فتأهب.

● يا مقيمًا للتحويل، يا سليمًا يظن أنه سليم، جوارحك جوارحك، سوْر تقواك كثير الثلم، وأعداؤك قد أحاطوا بالبلد، ويحك قبل الرمي تراش السهام.

## ● ولله ما أرق قول ابن الجوزي:

من مال إلى الدنيا وصبا ... قد أمعن في الفاني طلبًا

خذ ما يبقى كيلا تشقى ... واتبع حقًّا ودع اللعبا

وذر الدنيا فلكم قتلت ... مكرًا بسهام هوى وصبا

برت ورعت فإذا اجتمعت ... خدعت حتى قطعت إربا

يا عاشقها كم قد نصبت ... لهلاكك فاحذرها سببًا

يا آمنها كم قد سلبت ... ولدًا برًّا أمًّا وأبا

أفأين الجار أما قد جار ... فجارته حتى ذهبا

أم أين الترب أما تربت ... خداه أما سكن التربا

كم خدت خدًّا في الأخدود ... وقدت قدًّا منتصبا

كم ثغر ملتثم ثلمت ... قد كان لراشفه رضبًا

فسقته المر لدى جدث ... وكذاك الدهر إذا ضربا

وأتت قصرًا يحوي نصرًا ... فغدا وقصاراه خربا

ومليكًا في صولة دولته ... أضحى في الحفرة مغتربا

عــرج بــالــدار عــلــى الآثــار	وســل طــلــلاً أمــســى شــجــبــا
يــنــبــيــك بــأنــهــم رحــلــوا	وثــوى مــن بــعــدهــم الــغــربــا
بــيــنــا الإنــســان يــرى رأسًــا	فــهــوى رأسًــا فــغــدا ذنــبــا
فــتــأمــل عــاقــبــة الــدنــيــا	فــلــعــلــك تــصــبــح مــجــتــنــبــا
وتــدبــر مــا صــنــعــت فــلــقــد	أبــدت بــصــنــايــعــهــا عــجــبــا
يــنــســاك الأهــل إذا رجــعــوا	عــن قــبــرك لا تــســمــع كــذبــا
تــركــوك أســيــرًا إذ ذهــبــوا	بــتــراب ضــريــحــك مــحــتــجــبــا
وغــدوا فــرحــين بمــا أخــذوا	وغــدوت بــإثــمــك مــحــتــقــبــا
وتــرى أعــمــالــك قــد حــضــرت	فــتــنــكــس رأســك مــكــتــئــبــا
فــكــر في الــذنــب ومــا احــتــقــبــت	كــفــاك عــلــيــك ومــا اكــتــســبــا
كــم بــت عــلــى ذنــب فــرحًــا	وغــدوت عــلــى ذنــب طــربــا
وعــلــمــت بــأن الــلَّــه يــرى	فــأســأت ولــم تحــســن أدبــا
فــأعــد الــزاد فــمــا ســفــر	كــالمــوت تــرى فــيــه نــصــبــا
وأفــق والــعــمــر بــه رمــق	فــكــأن قــد فــات وقــد ذهــبــا[1]

* * *

## • يا مَن غرّه الأمل:

يــا أيــهــذا الــذي قــد غــره الأمــلُ	ودون مــا يــأمــل الــتــنــغــيــص والأجــلُ
ألا تــرى إنمــا الــدنــيــا وزيــنــتــهــا	كــمــنــزل الــركــب حــلــوا ثــمــت ارتحــلــوا
حــتــوفــهــا رصــد وعــيــشــهــا نــكــد	وصــفــوهــا كــدر ومــلــكــهــا دول
تــظــل تــفــزع بــالــروعــات ســاكــنــهــا	فــمــا يــســوغ لــه عــيــش ولا جــذل

---

(١) «المدهش» ص(٢٠٢ ـ ٢٠٣).

كأنه للمنايا والردى غرض ... تظل فيه سهام الدهر تنتضل
والنفس هاربة والموت يتبعها ... وكل عثرة رجل عندها جلل
والمرء يسعى بما يسعى لوارثه ... والقبر وارث ما يسعى له الرجل(١)

## • أخي: أيها الغريب إنك راحل:

يا من نسبه معرق في الموتى. وقد وعظوه وإن لم يسمع صوتًا. أدرك أمرك، فما تأمن فوتًا.

ألا كل حي هالك وابن هالك ... وذو نسب في الهالكين عريق
فقل لغريب الدار إنك راحل ... إلى منزل نابي المحل سحيق
وما تعدم الدنيا الدنية أهلها ... شواظ نار أو دخان حريق
تجرع فيها هالكًا فقد هالك ... وتشجي فريقًا منهم بفريق
فلا تحسب الدنيا إذا ما سكنتها ... قرارًا فما دنياك غير طريق
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت ... له عن عدو في ثياب صديق
عليك بدار لا يزول ظلالها ... ولا يتأذى أهلها بمضيق
فما يبلغ الراضي رضاه ببلغة ... ولا ينفع الصادي صداه بريق(٢)

* * *

• **يا غافلاً:** يا راقدًا، وقد أوذن بالرحيلْ. يا مشيد البنيان في مدارج السيولْ. بادر العمل، قبل انقضاء العمر * لا تنسى من يعد الأنفاس للقائك.

---

(١) «المدهش» ص(١٩٤).

(٢) «المدهش» ص(١٩٨).

## • أخي: أتدري ما الدنيا وقصرها؟

وما هي إلا ليلة ثم يومها ... ويوم إلى يوم وشهر إلى شهر
مطايا يُقربْنَ الجديد من البِلى ... ويدنين أشلاء الصحيح إلى القبر
ويتركن أزواجَ الغيور لغيره ... ويقسمن ما يحوي الشحيح من الوفر[١]

## • أخي: كم من شيخ رحل إلى القبور:

وكم من فتى يمسي ويصبح آمنًا ... وقد نسجت أكفانه وهو لا يدري

• يا شدة الوجل * عند حضور الأجل * يا حسرة الفوت * عند حضور الموت * يا خجلة العاصين * يا أسف المقصرين *

إلى حتفي سعى قدمي ... أرى قدمي أراق دمي
فما انفك من ندم ... وهان دمي فها ندمي

• استلب زمانك. يا مسلوب * وغالب الهوى يا مغلوب * وحاسب نفسك فالعمر محسوب * وامح قبيحك، فالقبيح مكتوب * وا عجبًا لنائم، وهو مطلوب * ولضاحك، وعليه ذنوب *

ألا ذكراني قبل أن يأتي الموت ... ويبنى لجثماني بدار البلى بيت
وعرفني ربي طريق سلامتي ... وبصرني لكنني قد تعاميت
وقالوا مشيب الرأس يحدو إلى البلى ... فقلت أراني قد قربت فأدنيت[٢]

## • يا بن التراب:

يا من يستنأي عن بنيه ... كما نأى عنه أبوه

(١) «المدهش» ص(١٩٩).
(٢) «المدهش» ص(٢٠٨).

مثل لنفسك قولهم جاء اليقين فوجهوه
وتحللوا من ظلمه قبل الممات وحللوه[1]

## • يا ساكن القبور غدًا:

• يا من يمشي على ظهور الحفر * ويرى السابقين إلى بيوت المدر * لو أصغى سمع التدبير، سمع العبر * كفى بالموت واعظًا يا عمر.

وعظتك أجداث صمت ونعتك أزمنة خفت
وتكلمت عن أعظم تبلى وعن صور شتت
وأرتك قبرك في القبور وأنت حي لم تمت

• يا سادراً في سكر سروره * يا سادلاً ثوب غروره * كأنك بك، قد اقتعدت غارب الغربة * واستبدلت بالأثواب التربة * سيقسم مالك من لا يحمدك * وستقدم على من لا يعذرك * غداً يرجع الحبيبان عنك * حبيبك من أهلك، يقسم حبيبك من مالك * وأنت في قفر الفقر إلى ما أسلفت * تبكي على ما خلفت * بين أناس كلهم أسير الفرق * وجميعهم على مهاد القلق *

محلة سفر كان آخر زادهم إليه متاع من حنوط ومن خرق
إلى منزل سوى البلى بين أهله فلم تستبن فيه الملوك من السوق[2]

## • أخي:

كأنك لم تسمع بأخبار من مضى ولم تر في الباقين ما يصنع الدهرُ
فإن كنت لا تدري فتلك ديارهم محاها مجال الريح بعدك والقطر
على ذاك مروا أجمعون وهكذا يمرون حتى يستزدهم الحشر

---

(١) «المدهش» ص(٢٠٩).
(٢) «المدهش» ص(٢١٦ - ٢١٧).

فحتام لا تصحو وقد قرب المدى ... وحتام لا ينجاب عن قلبك السكرُ

بلى سوف تصحو حين ينكشف الغطا ... وتذكر قولي حين لا ينفع الذكرُ[١]

• **أخي:**

يا ساكن الدنيا تأهب ... وانتظر يوم الفراقِ

وأعد زاداً للرحيل ... فسوف يحدى بالرفاق

وابك الذنوب بأدمع ... تنهل من سحب المآق

يا من أضاع زمانه ... أرضيت ما يفنى بباقِ[٢]

• **أيها الغافل:**

يا من يعد غداً لتوبته ... أعلى يقين من بلوغ غدِ

المرء في زلل على أمل ... ومنية الإنسان بالرصد

أيام عمرك كلها عدد ... ولعل يومك آخر العددِ[٣]

• **يا راحلاً بالإقامة:**

أنت في دار شتات ... فتأهب لشتاتكْ

واجعل الدنيا كيوم ... صمته عن شهواتك

وليكن فطرك عند ... الله في يوم وفاتكْ[٤]

• **يا ساكن التراب:**

قل لمن فاخر بالدنيا وحامى ... قتلت قبلك ساماً ثم حاما

ندفن الخل وما في دفننا ... بعده شك ولكنْ نتعامى

---

(١) «المدهش» ص(٢٢١).

(٢) «المدهش» ص(٢٢٩).

(٣) «المدهش» ص(٢٣٤).

(٤) «المدهش» ص(٢٤٢).

إن قـدامـك يـومًـا لـو بـه ... هددت شمس الضحى عادت ظلاما
فـانـتـبـه مـن رقـدة الـلـهـو وقـم ... وانـف عـن عـين تماديـك المـنـامـا
صـاح صح بـالـقـبـر يـخـبـرك بمـا ... قد حوى واقرأ على القوم السلاما
فـالـعـظـيـم الـقـدر لـو شـاهـدتـه ... لـم تجد فـي قـبـره إلا الـعـظـامـا[1]

● أخي: لا تسكن إلى الدنيا فالدنـيا لعب واللعب لا يليق بمن شبّ عن الطوْق:

دار تـغـر بـهـا الأمـال مـهـلـكـة ... وذو الـتـجـارب فـيـهـا خـائـف فـرق
يـا لـلـرجـال لمخدوع بـزخـرفـهـا ... بـعـد الـبـيـان ومـغـرور بـهـا يـثـق
أقول والـنـفـس تـدعـوني لـبـاطـلـهـا ... أيـن المـلوك مـلـوك الـنـاس والـسـوق
أيـن الـذيـن إلـى لـذاتـهـا ركـنـوا ... قـد كـان فـيـهـا لـهـم عـيـش ومـرتـفـق
أمـسـت مـسـاكـنـهـم قـفـرًا معطلـة ... كـأنـهـم لـم يـكـونـوا قـبـلـهـا خـلـقـوا
يـا أهـل لـذات دار لا بـقـآء لـهـا ... إن اغـتـرارًا بـظـل زايـل حـمـق[2]

● أخي: كفاك نذير الشيب:

بـلـيـت ومـا تـبـلـى ثـيـاب صـبـاكـا ... كـفـاك نـذير الـشـيـب فـيـك كـفـاكـا
ألـم تـر أن الـشـيـب قـد قـام نـاعـيًـا ... مـقـام الـشـبـاب الـغـض ثـم نـعـاكـا
ولـم تـر يـومًـا مـر إلا كـأنـه ... بـإهـلاكـه لـلـهـالـكـين عـنـاكـا
ألا أيـهـا الـفـانـي وقـد حـان حـيـنـه ... أتـطـمـع أن تـبـقـى فـلـسـت هـنـاكـا
تـسـمّعْ ودع من أفـسـد الغي سمعه ... كـأنـي بـداع قـد أتـى فـدعـاكـا

---

(١) «المدهش» ص(٢٤٦ ـ ٢٤٧).
(٢) «المدهش» ص(٢٥٦).

ورب أمان للفتى نصبت له ... المنية فيما بينهن شراكا
أراك وما تنفك تهدي جنازة ... ويوشك أن تهدى هديت كذاكا
ستمضي ويبقى ما تراه كما ترى ... وينساك من خلفته هو ذاكا
ألا ليت شعري كيف أنت إذا القوى ... وهت وإذا الكرب الشديد علاكا
تموت كما مات الذين نسيتهم ... وتنسى ويهوى الحي بعد هواكا
كأن خطوب الدهر لم تجر ساعة ... عليك إذا الخطب الجليل أتاكا
ترى الأرض كم فيها رهون دفينة ... غلقن فلم يقبل لهن فكاكا[(١)]

**• يا مأكول الدود غداً:**

تجهز إلى الأجداث ويحك والرمس ... جهازاً من التقوى لأطول محَبس
فإنّك ما تدري إذا كنت مصبحًا ... بأحسن ما ترجو لعلك لا تمسي
سأتعب نفسي لو أصادف راحة ... فإن هوان النفس أكرم للنفس
وأزهد في الدنيا فإن مقيمها ... كظاعنها ما أشبه اليوم بالأمس[(٢)]

**• أخي:**

يا من أيام عمره في حياته. معدودةْ، وجسمه بعد مماته مع دودةْ.

رأيتك في النقصان مذ أنت في المهد ... تقربك الساعات من ساعة اللحد
ستضحك سن بعد عين تعصرت ... عليك وإن قالت بكيت من الوجد
أتطمح أن يشجى لفقدك فاقد ... لعل سرور الفاقدين مع الفقد[(٣)]

* * *

(١) «المدهش» ص(٣٠٧ ـ ٣٠٨).
(٢) «المدهش» ص(٣٥١).
(٣) «المدهش» ص(٣٦٣).

• **أخي:**

قل للمفرط يستعد ... ما من ورود الموت بدٌّ
قد أخلق الدهر الشباب ... وما مضى لا يستردٌّ
فإلى م يشتغل الفتى ... في لهوه والأمر جدٌّ
والعمر يقصر كل يوم ... بي وآمالي تمدٌّ[1]

• **يا دار الأحبة أين تحوّل السكانُ؟:**

سألت الدار تخبرني ... عن الأحباب ما فعلوا
فقالت لي أناخ القو ... مُ أيامًا وقد رحلوا
فقلت فأين أطلبهم ... وأي منازل نزلوا
فقالت بالقبور وقد ... لقوا والله ما فعلوا
أناس غرهم أمل ... فبادرهم به الأجل
فنوا وبقى على الأيا ... مِ ما قالوا وما عملوا
وأثبت في صحائفهم ... قبيح الفعل والزلل
فلا يستعتبون ولا ... لهم ملجأ ولا حيل
ندامى في قبورهم ... وما يغني وقد حصلوا

• **يا نفس حتام إلى الدنيا سكونك وإلى عمارتها ركونك؟:**

يا نفسي توبي فإن الموت قد حانا ... واعصي الهوى فالهوى ما زال فتانا
أما ترينا المنايا كيف تلقطنا ... لقطًا وتلحق أخرانا بأولانا
في كل يوم لنا ميت نشيعه ... نرى بمصرعه آثار موتانا

---

(١) «المدهش» ص(٣٧١).

يا نفس ما لي وللأموال أتركها ... خلفي وأخرج من دنياي عريانا

أبعد خمسين قد قضيتها لعبًا ... قد آن أن تقصري قد آن قد آنا

ما بالنا نتعامى عن مصائرنا ... ننسى بغفلتنا من ليس ينسانا

نزداد حرصًا وهذا الدهر يزجرنا ... كأن زاجرنا بالحرص أغرانا

أين الملوك وأبناء الملوك ومن ... كانت تخر له الأذقان إذعانا

صاحت بهم حادثات الدهر فانقلبوا ... مستبدلين من الأوطان أوطانا

خلوا مدائن كان العز مفرشها ... واستفرشوا حفرًا غبرًا وقيعانا

يا راكضًا في ميادين الهوى مرحًا ... ورافلاً في ثياب الغي نشوانا

مضى الزمان وولى العمر في لعب ... يكفيك ما قد مضى قد كان ما كانا[1]

● **أخي:**

حياتك أنفاس تعد فكلما ... مضى نفس منها انتقصت بها جزءا

فتصبح في نقص وتمسى بمثله ... أما لك معقول تحس به رزءا

يميتك ما يحييك في كل ساعة ... ويحدوك حاد ما يريد بك الهزءا[2]

● **أخي:**

قل للمؤمل إن الموت في أثرك ... وليس يخفى عليك الأمر من نظرك

فيمن مضى لك إن فكرت معتبر ... ومن يمت كل يوم فهو من نذرك

دار تسافر عنها من غدٍ سفرًا ... فلا تؤب إذا سافرت من سفرك

تضحى غدًا سمرًا للذاكرين كما ... صار الذين مضوا بالأمس من سمرك[3]

---

(١) «المدهش» ص(٣٨٩).

(٢) «المدهش» ص(٤٦٩).

(٣) «المدهش» ص(٤٨٧).

**• أخي:**

تبني وتجمع والآثار تندرس وتأمل اللبث والأرواح تختلسُ
ذا اللب فكر فما في الخلد من طمع لا بد ما ينتهي أمر وينعكس
أين الملوك وأبناء الملوك ومن كانوا إذ الناس قاموا هيبة جلسوا
ومن سيوفهم في كل معترك تخشى ودونهم الحجاب والحرس
أضحوا بمهلكة في وسط معركة موتى وماشي الورى من فوقهم يطس
وعمهم حدث وضمهم جدث باتوا وهم جثث في الرمس قد حبسوا
كأنهم قط ما كانوا ولا خلقوا ومات ذكرهم بين الورى ونسوا
واللّه لو نظرت يمناك ما صنعت يد البلى بهم والدود يفترس
من أوجه ناظرات حار ناظرها في رونق الحسن منها كيف تنطمس
وأعظم باليات ما بها رمق وليس تبقى وهذا وهي تنتهس
وألسن ناطقات زانها أدب ما شأنها شأنها بالآفة الخرس
ثلتهم السن للدهر فاغرة فاهًا فآهًا لهم إذ بالردى وكسوا
عروا عن الوشي لما ألبسوا حللاً من الرغام على أجسادهم وكسوا
حتام يا ذا النهى لا ترعوي سفهًا ودمع عينك لا يهمي وينبجس[1]

**• أيها السادر في غيّه:**

أين من أصبح في غفلته في سرور ومرادات خلتْ
أصبحت أماله قد خيبت وديار لهوه قد خربتْ

(١) «المدهش» ص(٤٩٦ ـ ٤٩٧).

جز علـى الدار بقلـب حاضـر ... ثـم قـل يـا دار مـاذا فعلـتْ
أوجـه كـانـت بـدوراً طُـلَّـعًـا ... وشـمـوسًـا طـال مـا قـد أشـرقـتْ
قـالـت الـدار: تـفـانـوا ومـضـوا ... وكـذا كـلُّ مـقـيـم إن ثـبـت
عـايـنـوا أفـعـالـهـم فـي تـربـهـم ... فـسـل الأجـداث عـمـا اسـتـودعـت
إنمـا الـدنـيـا كـظـل زائـل ... أو كـأحـلام مـنـام ذهـبـت

• **أخي:**

ليخرسن الموت بسطوته فاك، إذا وافاك. إنما اليوم لهذا وغدًا لذاك.

قرئ على قبر:

أنـا فـي الـقـبـر وحـيـد ... قـد تَـبَـرَّأ الأهـلُ مِـنِّـي
أسـلـمـونـي بـذنـوبـي ... خـبـت إنْ لـم تـعـف عـنـي[1]

• **أيها الراحل غدًا:**

كـأنـك بـالمضـي إلـى سـبـيـلـك ... وقـد جـد المجـهـز فـي رحـيـلـك
وجـيء بـغـاسـل فـاسـتـعـجـلـوه ... بـقـولـهـم لـه: افـرغ مـن غـسـيـلـك
ولـم تحـمـل سـوى كـفـن وقـطـن ... إلـيـهـم مـن كـثـيـرك أو قـلـيـلـك
وقـد مـد الـرجـال إلـيـك نـعـشًـا ... فـأنـت عـلـيـه ممـدود بـطـولـك
وصـلـوا ثـم إنَّـهُـمُ تـداعـوا ... لحـمـلـك فـي بـكـورك أو أصـيـلـك
ولمـا أسـلـمـوك نـزلـت قـبـرًا ... ومـن لـك بـالـسـلامـة فـي نـزولـك
أعـانـك يـوم تـدخـلـه رحـيـم ... رءوف بـالـعـبـاد عـلـى دخـولـك
فـسـوف تجـاور المـوتـى طـويـلاً ... فـدعـنـي مـن قـصـيـرك أو طـويـلـك

---

(١) «المدهش» ص(٥٢٠).

أخي إنِّي نصحتك فاستمع لي ... وباللَّه استعنت على قبولك
ألست ترى المنايا كل يوم ... تصيبك في أخيك وفي خليلك

* * *

• أخي:

رحل الأحبة عن ديارهم ... أهون بما أخذوا وما تركوا
ونفوسنا أين مضى الخليط فما ... أنا بالمبالي أية سلكوا
إن الملوك إذا هم احتضروا ... ودوا هنالك أنهم نسكوا[1]

* * *

• ألا تبكي لنفسك:

تنوح وتبكي للأحبة أن مضوا ... ونفسك لا تبكي وأنت على الأثر[2]

* * *

(١) «المدهش» ص(٥٤٤).
(٢) «المدهش» ص(٥٤٧).

# ذكر الـمـوت... من مقامات الحريري

حَدّث الحـارثُ بن همـام قال: آنَسْـتُ من قلبـي القسـاوةَ حين حلـلتُ سَـاوةَ[١] ، فأخذت بالخبر المأثور في مُداوتهـا بزيارة القبور، فلما صرت إلى محلـة الأموات وكِفَات الـرُفات[٢] ، رأيت جمعًـا على قبر يُحفـر ومَجْنُوزٍ يُقبَرُ، فَانَحـزتُ إليهم مُتفكرًا في المآل مُـتذكرًا من دَرَجَ من الآل[٣] ، فـلمـا ألحدوا الميت، وفات قول ليت، أشرف شيخ من رُبَاوَةٍ[٤] مُتخصرًا بهِرَاوة وقد لـفَّـع[٥] بردائه، ونكّر شخصـه لِدهائه، فقال: لمثل هذا: فَليعـمل العاملون فادَّكـروا أيُّهـا الغافـلون، وشَـمروا أيَّهـا المقصـرون، وأحسـنوا النـظر أيُّـها المتبصرون. ما لكم لا يحزنكم دفن الأتراب[٦] ولا يهولكم هَيلُ التراب، ولا تعبأون بـنوازل الأحداث ولا تستعـدون لنزول الأجداث[٧] ، ولا تستـعبرون بعين تدمع ولا تعتبرون بنعي يُسـمع، ولا ترتاعون لإلفٍ يُفقدُ ولا تلتاعون[٨] لمناحة تُعقدُ يُشَـيِّعُ أحدكم نعش الميت وقلبه تِلقاء البيـت ويشهد مَوَارَاة نسيبه وفِكرُهُ في استخلاص نصـيبه ويُخَلِّي بين وَدُودِه وَدُودِه[٩] ، ثم يخلـو بمِزماره

---

(١) ساوة: بلدة من الري وهمذان.

(٢) الأصل في الكفات الأوعية التي تضم الشيء يريد بها الأرض والرفات هي: العظام البالية من الرفت وهو الكسر.

(٣) أي: مات من الأقارب.

(٤) هي: الربوة والرابية هي: ما ارتفع من الأرض.

(٥) أي: غطّى وستر.

(٦) القرناء في السن وهم: اللدات.

(٧) جمع: جدث، وهو: القبر.

(٨) أي: تحترقون من الالتياع وهو حرقة القلب من الحزن.

(٩) الأول بمعنى: المحب، والثاني بمعنى: الدود.

وعُوده طالـمًا أَسِيـتم عل انثِلام الحَبَّة[١] وتناسيتم اخترام الأحـبة، واستكنتم لاعتراض الـعُسرة واستـهنتم بانـقراض الأسرة، وضحـكتم عنـد الدفن ولا ضحكـكم ساعة الـزفن[٢] وتبخترتم خـلف الجنائز ولا تبختـركم يوم قبض الجوائز وأعرضتم عن تعديد النوادب إلى إعداد المآدب وعن تحرق الثَواكل إلى التأنق فـي المآكل لا تبالون بمن هـو بالٍ ولا تُخطرون ذكر الموت بـبالٍ، حتى كأنكم قد عَلِقتم من الحَمام بزمام أو حـصلتم من الزمان على أمان، أو وثقتم بسلامة الذَّات، أو تحققتم مسالمة هاذم اللذَّات، كلاَّ ساء ما تتوهَّمُون، ثم كلاَّ سوف تعلمون، ثم أنشد:

أيـا مـن يَـدَّعـي الـفـهْـمْ إلى كـم يـا أخـا الـوهْـمْ تُـعـبِّـي الـذّنـبَ والـذّمْ
وتُـخـطـي الخـطـأ الجَـمْ

أمـا بـان لـك الـعـيْـبْ، أمـا أنـذرك الـشَّـيْـبْ ومـا فـي نُـصـحـه رَيْـبْ
ولا سَـمْـعُـكَ قـد صـمْ

أمـا نـادى بـك المـوتْ أمـا أسـمـعـكَ الـصـوْتْ أمـا تـخـشـى مـن الـفـوْتْ
فـتـحـتـاط وتـهـتـمْ

فـكـم تَـسـدرُ فـي الـسَّـهْـوْ وتـخـتـالُ مـن الـزَّهْـوْ وتـنـصـبُّ إلى الـلـهْـوْ
كـأنَّ المـوتَ مـا عَـمْ

وحـتـام تَـجـافـيـكْ وإبـطـاءُ تـلافـيـكْ طِـبَـاعًـا جَـمَّـعَـتْ فِـيـكْ
عُـيُـوبًـا شـمـلُـهَـا انـضَـمْ

إذا أَسـخـطـتَ مـولاكْ فـمـا تـقـلـقُ مِـن ذَاكْ وإن أخـفـق مَـسْـعَـاكْ
تَـلـظَّـيـتْ مـن الـهَـمْ

---

(١) المعنى: طالما حزنتم على انكسار حبوب المأكولات.

(٢) نوع من الرقص.

وإن لاحَ النَّقشْ من الأصفر تهتشّ وإن مرّ بكَ النعْشْ
تَغامْتَ ولا غَمْ

تُعاصي النَّاصح البَرّ وتَعتاصُ[١] وتَزورّ[٢] وتَنْقاد لمن غَرَّ
ومن مانَا[٣] ومن نَمْ

وتسعى في هوى النفْسْ وتحتالُ على الفَلْسْ وتنسى ظُلمةَ الرَّمْسْ
ولا تَذكُرُ مَا ثَمْ

ولو لاحظكَ الحَظّ لما طاحَ بكَ اللَّحْظْ ولا كُنتَ إذا الوَعْظْ
جَلاَ الأحزانَ تَغْتَمْ

سَتُذرِي الدَّمَ لا الدَّمْعْ إذا عاينتَ لا جَمْعْ يَقِي في عَرْصَةِ الجَمْعْ
ولا خَالَ ولا عَمْ

كأنِّي بكَ تَنْحَطَ إلى اللَّحدِ وتَنْغَطّ وقد أسلمكَ الرَّهْطْ
إلى أَضْيقَ مِنْ سَمْ

هُناكَ الجِسمُ مَمدودْ ليستأكلَهُ الدُّودْ إلى أَنْ يَنخَرَ العُودْ
ويُمسي العَظْمُ قد رَمْ

وَمِنْ بَعْدُ فلا بُدّ منَ العَرضِ إذا اعتُدّ صِرَاطٌ جِسْرُهُ مُدّ
عَلَى النَّارِ لمنْ أَمْ

فَكَمْ مِن مُرشدٍ ضَلّ ومِن ذِي عِزَّةٍ ذَلّ وكَمْ مِن عَالِمٍ زَلّ
وَقَالَ الخَطْبُ قد طَمْ

---

(١) أي: تصعب، يقال: اعتاص عليه الأمر إذ أشكل.

(٢) تزور أي: تميل وتعدل وتنثني عن قبول ما يقال لك من الحق.

(٣) مان أي: كذب، نم: سعى بالنميمة.

فَبادر أيها الغُمْرُ[1] لما يَحلُو به المُرّ فقدْ كادَ يَهي العُمْرُ
وما أقلعتَ عن ذَمْ

ولا تَركنْ إلى الدَّهْرْ وإنْ لان وإنْ سَرّ فَتُلْقَى كَمَنِ اغتَرّ
بأفْعَى تَنفُثُ السُّمْ

وَخَفِّضْ مِن تَراقيكْ فإنَّ الموتَ لاقيكْ وسَارٍ في تَراقيكْ
وما يَنْكُلُ إنْ هَمْ

وجَانِبْ صَعَرَ الخَدّ إذا سَاعدكَ الجَدّ وَزُمَّ اللَّفْظَ إن نَدّ
فَما أسعَدَ من زَمْ

ونَفِّسْ عن أخي البَثّ وصَدِّقْه إذا نَثّ[2] ورُمَّ العملَ الرَّثّ
فَقدْ أفلحَ من رَمْ

ورِشْ مَنْ ريشُهُ انْحَصّ بِما عَمَّ وما خَصّ ولا تَأسَ عَلَى النَّقْصْ
ولا تحرصْ على اللَّمْ

وعَادِ الخُلُقَ الرَّذْلْ وعَوّدْ كَفَّكَ البَذْلْ ولا تستَمِعِ العَذْلْ
ونزِّهْهَا عَنِ الضَّمْ

وزَوِّدْ نفسَكَ الخَيْرْ ودَعْ ما يُعْقِبُ الضَّيْرْ[3] وهَيِّئْ مَركبَ السَّيْرْ
وخَفْ من لُجَّةِ اليمْ

بِذَا أُوصِيتُ يَا صَاحْ وقد بُحتُ كَمنْ بَاحْ فَطُوبَى لِفَتًى رَاحْ
بذكرِ الموتِ يَهْتَمْ

---

(١) الجاهل الذي لم يجرب الأمور.

(٢) أي: نشر الكلام.

(٣) يقال: ضاره يضيره ضيراً إذا ضره.

• **أخي:**

إنـي أرقـتُ وذكـر المـوت أرَّقـنـي ... فقلت للدمع أسعدني فأسعدني
إن لـم أبك لـنـفسي مشعرًا حزنًا ... قـبـل المـمات ولـم أرق لـهـا فـمـن
يـا مـن يموت ولـم تحزنـه ميتته ... ومـن يمـوت فـمـا أولاه بـالحـزنِ
إنـي لأرقـع أثـوابـي ويـخـلـقـهـا ... جدب الـزمان لـهـا بـالوهن والعـفن
لمـن أثـمـر أمـوالـي وأجـمـعُـهـا ... لمـن أروح لمـن أغـدو لمـن لمـن
لمن سيـوقـع بي لحـدي ويتـركـنـي ... تحت الثرى ترب الخدين والذقن[1]

• **وقال آخر:**

ومـا المـرء إلا راكـب ظَـهْـرَ عـمـرِه ... على سفر يفـنيه بـاليـوم والـشـهر
يبيت ويضحى كـل يـوم ولـيـلـة ... بعيداً عن الدنيا قريبًا إلى القبر

• ما أطولها من غفلة نحن في ليلها نائمون وفي نهارها سارحون.

• قال إبراهيم بن أدهم: قد حُجبت قلوبنا بثلاثة أغطية، فلن يكشف العبد اليقين حتى ترفع هذه الحجب الفرح بالموجود، والحزن على المفقود، والسرور بالمدح، فإذا فرحت بالموجود فأنت حريص، وإذا حزنت على المفقود فأنت ساخط، والساخط معذب، وإذا سررت بالمدح فأنت معجب والمعجب يحبط عمله[2].

• قال الحارث بن إدريس: قلت لداود الطائي: أوصني فقال: عسكر الموت ينتظرونك[3].

---

(١) «محاسبة النفس» ص(٨٧)، و«المدهش» ص(١٨٣).
(٢) «الإحياء» (٤/ ٣٣٦).
(٣) «صفة الصفوة» (٣/ ١٤١).

كأن المنايا قد قصدن إليك يردنك فانظر ما لهن لديكا
سيأتيك يومٌ لست فيه بمكرم بأكثر من حثو التراب عليكا[١]

• قال عمر بن عبد العزيز: من قرب الموت من قلبه استكثر ما في يديه[٢].

• قال أبو الدرداء: أحب الفقر تواضعًا لربي، وأحب الموت اشتياقًا لربي، وأحب المرض تكفيرًا لخطيئتي[٣].

**• إخواني:**

جدوا فقد سُبقتم، واستعدوا فقد لُحقتم، وانظروا بماذا من الهوى عُلقتم، ولا تغفلوا عما له خلقتم، ذهبت الأيام وما أطعتم، وكُتِبَت الآثام وما أصغيتم، وكأنكم بالصادقين قد وصلوا، وانقطعتم، أهذا التوبيخ لغيركم؟ أما قد سمعتم؟

كم سكن مثلك في هذا الدار. فحام الموت حول حماهم ودار، ثم ناهضهم وسلب الجار، فمن أنذر قبل هجومه فما جار، يا هذا العمر عمرٌ قليل وقد مضى أكثره بالتعليل، وأنت تعرض البقية للتأويل، وقد آن الأوان أن يرحل النزيل[٤].

لقد خوفنا الموت بمن أخذ منا، ونعلم هجومه علينا وقد أمنا.

قال لقمان لابنه: يا بني أمرٌ لا تدري متى يلقاك استعد له قبل أن يفجأك[٥].

---

(١) «ديوان أبي العتاهية» ص(٣٠١).
(٢) «شرح الصدور» ص(٢١).
(٣) «شرح الصدور» ص(١٥).
(٤) «التذكرة في الاستعداد ليوم الآخرة» ص(٩١).
(٥) «العاقبة في ذكر الموت والآخرة» ص(٩٢) لعبد الحق الإشبيلي.

فتفكر يا مغرور في الموت وسكرته، وصعوبة كأسه ومرارته، فيا للموت من وعد ما أصدقه، ومن حاكم ما أعدله، كفى بالموت مقرحًا للقلوب ومبكيًا للعيون، ومفرقًا للجماعات، وهادمًا للذات، وقاطعًا للأمنيات فهل تفكرت يا ابن آدم في يوم مصرعك، وانتقالك من موضعك وإذا نقلت من سعة إلى ضيق وخانك الصاحب والرفيق وهجرك الأخ والصديق، وأخذت من فراشك وغطائك إلى عرر، وغطوك بعد لين لحافك بتراب وقذر، فيا جامع المال والمجتهد في البنيان، ليس لك واللَّه من مال إلا الأكفان، بل هي واللَّه للخراب والذهاب وجسمك للتراب والمآب، فأين الذي جمعته من مال؟ هل أنقذك من الأهوال؟ كلا بل تركته إلى من لا يحمدك، وقدِمت بأوزارك على من لا يعذرك[1] .

● قال أبو سليمان الداراني: قلت لأم هارون العابدة: أتحبين أن تموتي؟ قالت: لا. قلت: ولِمَ؟ قالت: واللَّه لو عصيت مخلوقًا لكرهت لقاءه فكيف بالخالق جل جلاله[2] .

## * ألا قلوبٌ لها عيون؟!

قال ابن الجوزي في «بستان الواعظين»:

قيل للربيع ـ رحمه اللَّه ـ ألا تجلس معنا نتحدث؟ فقال: إن ذكر الموت إذا فارق قلبي ساعة فسد عليّ قلبي. وأنشدوا:

ما أغفل الناس عن وعيد ... قربه الليل والنهار
والعار ما جرَّت المعاصي ... وليس في النائبات عار

---

(١) «التذكرة» ص(١٠).
(٢) «العافية» ص(٣٠).

ويحك ما تصنع المنايا ... تأتي فتخلى لها الديار
فلا قلوب لها عيون ... ولا عيون لها اعتبار

عباد اللَّه اسعوا في فكاك رقابكم، وأجهدوا أنفسكم في خلاصها قبل أن تزهق، فواللَّه ما بين أحدكم وبين الندم، والعلم بأنه قد زلت به القدم، إلا أن يحوم عقاب المنية عليه، ويفوق سهامها إليه، فإذا الندم لا ينفع، وإذا العذر لا يمنع، وإذا النصير لا يدفع، وإذا الشفيع لا يشفع، وإذا الذي فات لا يسترجع، وإذا البائس المحابي به في النجاة لا يطمع. فكأني بك يا أخي وقد صرخ عليك النسوان، وبكى عليك الأهل والإخوان، وفقدك الولدان ونفخ لفرقتك الجيران، ونادى عليك المنادي قد مات فلان بن فلان. ثم نقلت عن الأحباب، وحملت إلى أرماس التراب وأضجعوك في محل ضنك، قصير السمك، مهول منظره، كثير وعره، مغشى بالوحشة. عرفته مهول الضريح، مطبق الصفيح، على غير مهاد ولا وداد، ولا مقدمة زاد ولا استعداد».

## • يا نفس هذا بيت مثواك:

أيها المعجب فخراً ... بمقاصير البيوتِ
أنما الدنيا محل ... لقيام وقنوتِ
فغداً تنزل بيتًا ... ضيقًا بعد النحوت
بين أقوام سكوت ... ناطقات في الصموت
فأرض في الدنيا بثو ... ب من العيش بقوت
واتخذ بيتًا ضعيفًا ... مثل بيت العنكبوت
ثم قل: يا نفس هذا ... بيت مثواك فموتي[1]

---

(١) «الكبائر» المنسوب للذهبي ص(١٥٥).

## • أخي: أزف الرحيل وما حصل الزاد:

أزف الرحيل وماحصل الزاد، فيا لرحيلك ما أعجله، يا لسفرك ما أطوله، يا لطريقك ما أهوله.

تنبه أيها الشاب لاغتنام العمل، تيقظ أيها الكهل قبل خيبة الأمل، بادر أيها الشيخ فكأن قد قيل ورحل - يا من ستفوت أنفاسه استدركها، يا من ستفوت أيامه أدركها، أعز الأنفس عليك نفسك فلا تهلكها[1] .

## • أخي:

إنْ كنت تطمع في الحياة فقد ترى ... أربـاب دارك سـاكَنـوا الأمـواتْ
أَنَّـى تحسُّ مـن الأكـارم ذكـرهـم ... خلت الديار وبادت الأصواتْ[2]

فالموت طالب لايعجزه المقيم، ولا ينفلت منه الهارب.

وللنفوس وإن كانت على وجلٍ ... من المنيّة آمال تقوّيها
والمرء يبسطها، والدهر يقبضها ... والنفس تنشرها والموت يطويها[3]

أخي.. أخي.. يا مأكول الدود غدًا.

حتى متى تُسقى النفوس بكأسها ... ريب المنون وأنت لاهٍ ترتعُ
أفقدْ رضيت بأن تُعَلَلّ بالمنى ... وإلى المنيّة كل يوم تُدفعُ؟
فتزودنّ ليوم فقرك دائبًا ... واجمع لنفسك لا لغيرك تجمع[4]

## • ﴿ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر﴾:

يا له مَرامًا ما أبعده، وزَوْرًا ما أغفله! وخطرًا ما أفظعه، ، لقد استَخْلوا

---

(١) «رؤوس القوارير» لابن الجوزي ص(١٥٣ ـ ١٥٨)، دار الصحابة.

(٢، ٣، ٤) «روضة العقلاء ونزهة الفضلاء» للحافظ أبي حاتم محمد بن حبان ص(٢٨٦، ٢٨٧) ـ مكتبة السنة.

منهم أي مُدَّكر وتناوشهم من مكان بعيد! أفبمصارع آبائهم يفخرون! أم بعديد الهلكى يتكاثرون! يرتجعون منهم أجسادًا خوت وحركات سكنت ولأن يكونوا عبرًا أحق من أن يكونوا مفتخرًا، ولأن يهبطوا بهم جناب ذلة، أحجى من أن يقوموا بهم مقام عِزّة! لقد نظروا إليهم بأبصار العَشْوَة، وضربوا منهم في غَمْرَةَ جَهالَة ولو استنطقوا عنهم عَرصَات تلك الديار الخاوية، والربوع الخالية لقالت: ذهبوا في الأرض ضُلاَّلاً، وذهبتم في أعقابهم جُهّالاً، تطئون في هامهم وتستنبتون في أجسادهم، وترتعون فيما لفظوا، وتسكنوا فيما خَرّبوا، وإنما الأيام بينكم وبينهم بواك ونوائح عليكم، أولئكم سلف غايتكم وفراط مناهلكم الذين كانت لهم مقاوم العز وحلبات الفخر ملوكًا وسُوَقًا...

سلكوا في بطون البرزخ سبيلاً، سُلِّطت الأرض عليهم فيه، فأكلت من لحومهم، وشربت من دمائهم، فأصبحوا في فجوات قبورهم جمادًا لا ينمون، وضمارًا لا يوجدون، لا يُفزعهم ورود الأهوال، ولا يحزنهم تنكرُ الأحوال، ولا يَجفُلون بالرواجف، ولا يأذنون للقواصف، غُيَّبًا لا ينتظرون وشهودًا لا يحضرون، وإنما كانوا جميعًا فتشتتوا وأُلافًا فافترقوا.

وما عن طول عهدهم، ولا بعد مَحَلِّهم عميت أخبارهم، وصُمّت ديارهم ولكنهم سقوا كأسًا بدّلتهم بالنطق خَرَسًا وبالسمع صممًا، وبالحركات سكونًا، فكأنهم في ارتجال الصفة صرعى سبات.

جيران لا يتآنسون، وأحباء لا يتزاورون، بليت بينهم عرى التعارف، وانقطعت منهم أسباب الإخاء، فكلهم وحيد وهم جميع، وبجانب الهجر وهم أخلاء. لا يتعارفون لليل صباحًا، ولا لنهارٍ مساءً، أي الجديدين ظعنوا فيه كان عليهم سرمدًا، شاهدوا من أخطار دارهم أفظع مما خافوا، ورأوا من آياتها أعظم مما قدروا.

فكلتا الغايتين[١] مُدت لهم إلى مَباءة[٢] فاتت مبالغ الخوف والرجاء.

فلو كانوا ينطقون بها لَعيُّوا بصفة ما شاهدوا وما عاينوا ولئن عميت آثارهم، وانقطعت أخبارهم، لقد رجعت فيهم أبصار العبر، وسمعت عنهم آذان العقول، وتكلموا من غير جهات النطق، فقالوا: كلحت الوجوه النواضر وخوت الأجسام النواعم، ولبسنا أهدام البلى، وتكاءَدَنا ضيق المضجع، وتوارثتنا الوحشة، وتهكمت [تهدمت] علينا الربوع الصموت، فانمحت محاسن أجسادنا وتنكرت معارف صورنا، وطالت في مساكن الوحشة إقامتنا ولم نَجدْ من كرب فرجًا، ولا مِنْ ضيق متسعًا.

فلو مثلتهم بعقلك، أو كشف عنهم محجوب الغطاء لك.. وقد ارتسخت أسماعهم بالهوام فاستلت، واكتحلت أعينهم بالتراب فخسفت، وتقطعت الألسنة في الأفواه بعد ذلاقتها، وهَمَدت القلوب في صدورهم بعد يقظتها وعاث في كل جارحة منهم جديد بلىً سمّجها وسهل طرق الآفة إليها مُسْتسلِمات فلا أيدٍ تَدْفَع، ولا قلوب تجزع لرأيت أشجان قلوب، وأقذاء عيون، لهم من كل فظاعة صفة حال لا تنتقل وغَمْرَة لا تنجلي.

فكم أكلت الأرض من عزيز جسد، وأنيق لون كان في الدنيا غَذِيّ ترف، وربيب شرف يتعلل بالسرور في ساعة حزنه، ويفزع إلى السلوة إنْ مصيبة نزلت به ضنًّا بغضارة عيشه[٣]، وشحاحةً بلهوه ولعبه.

فبينا هو يضحك إلى الدنيا وتضحك إليه، في ظل عيش غفول. إذ وطئ الدهر به حَسَكَه، ونقضت الأيام قواه ونظرت إليه الحتوف من كثب،

---

(١) الغايتان: الجنة والنار.

(٢) المباءة: مكان التبوء والاستقرار والمراد منها ما يرجعون إليه في الآخرة.

(٣) غضارة العيش: طيبه.

فخالطه بثٌّ لا يعرفه ونجيّ همٍّ ما كان يجده، وتولدت فيه فترات علل آنس ما كان بصحته ففزع إلى الأطباء؛ حتى فتر مُعَلِّله، وذهل مُمَرِّضه وتعايا أهله بصفة دائه، وخرسوا عن جواب السائلين عنه وتنازعوا دون شجي خبر يكتمونه، فقائل: هو لِمَا به، ومُمَنٍّ إياب عافيته، ومصبرٌ لهم على فقده يذكرهم أسى الماضي من قَبْله.

فبينا هو كذلك على جناح من فراق الدنيا وترك الأحبة، إذ عَرَضَ له عارض من غصَصه، فتحيرت نوافذ فطنته ويَبِسَت رطوبةُ لسانه؛ فكم من مُهِمٍّ من جوابه عَرَفَه فعي عن رَدِّه، ودُعاءٍ مؤلم بقلبه سمعه فتصام عنه! من كبير كان يعظمه، أو صغير كان يرحمه.

وإن للموت لغَمَرات هي أفظع من أن تستغرق بصفة، أو تعتدل على عقول أهل الدنيا[1] .

***

(١) «نهج البلاغة» ص(٢٦٦ ـ ٢٧٠).